قراءة في كتاب

عربٌ بلا رب

الإلحاد وحرية المجتمع في الشرق الأوسط

لـ «براين وايتاكر»

تأليف

ممدوح الشيخ

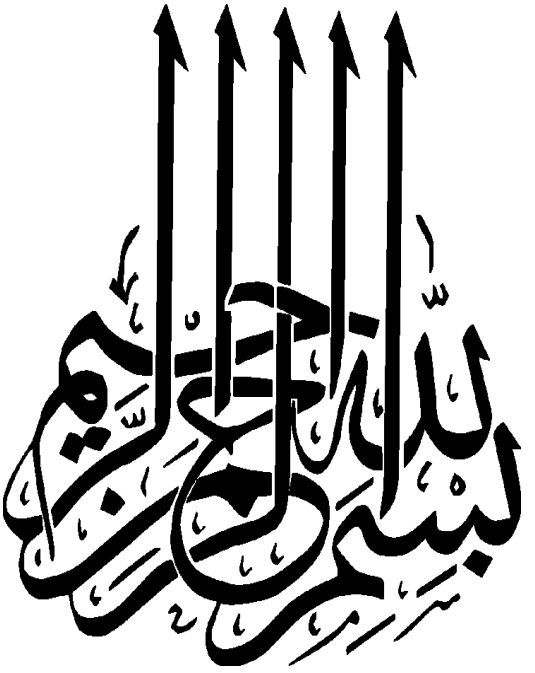
بسم الله الرحمن الرحيم

المقــدمة

يتصاعد إلحاح قضية الدين على الإنسان المعاصر، في مفارقة تاريخية استوقفت غيرَ قليل من الباحثين، فالتحولات المتتالية التي شهدها العصر الحديث كانت تبدو مرشحة بقوة لأنْ تُنتجَ إنسانًا أقلَّ اكتراثًا تجاه الدين، لكن الذي حدث فعليًّا أن القرن ١٩ كان برأي كثير من مؤرخي الغرب "قرن الأيديولوجيات"، فيما عُدَّ القرن ٢٠ "قرن الأديان"، وكان النصف الأخير حقبة "الإحياء الديني العالمي".

وفي عالمنا العربي مثَّلت الظاهرة الدينية بأوجهها المختلفة: والاجتماعية والثقافية الرقم الصعب في حقبة ما بعد الاستعمار العسكري المباشر، ومثَّلت مقولاتها، وكذلك تجلياتها التنظيمية تحديًا مختلف الأوجه، وأثار هذا التحدي غبارَ معارك سياسية وفكرية واجتماعية -وأمنية طبعًا- ربما بدءًا من انقلاب الفضيل الورتلاني في اليمن (١٩٤٨) مرورًا بـ"عشرية الدم" في الجزائر، وصولًا إلى مواجهات ما بعد "ثورات الربيع العربي" التي ما زالت معاركها تتواصل.

وهذا الإطار العام -في الحقيقة- وثيقُ الصلة بما تناوله الكاتب برايان وايتاكر من تجارب إنسانية تناولها في كتابه، إما وفقًا لرؤية أصحابها أنفسهم، وإما وفقًا لتحليلات ومسوحات أوردها في الكتاب، لكن الإقرار بوجود هذه العلاقة بين: "العام" و"الخاص"، وأعني بالعام حزمة ظواهر (صعود أهمية الدين، والإحياء الديني العالمي، والدور الكبير للحركات الإسلامية بعد "ثورات الربيع العربي")، بالتزامن مع ما هو خاص: وأعني به أن يقرر شخص ما أن يكون ملحدًا، هذا التزامن -أو التأثير- لا يعني قطعًا قبول كل التفسيرات التي تساق لتأكيد وجود صلة بينها -أو بين أيٍّ منها- وبين قرار شخص ما بأن يكون ملحدًا!

ومما لا شك فيه عندي أن الإلحاد أحد أكثر المشكلات تعقيدًا في واقعنا العربي، سواء من حيث العلاقة بين العنوان وما ينطبق عليه وما يجوز أن يندرج تحته، ومن حيث تأثيراته الاجتماعية والقانونية المعقدة، ومن حيث الكيفية التي يمكن بها التعامل معه في

ظل الوضع الراهن الملتهب سياسيًّا وأيديولوجيًّا واجتماعيًّا.

وواحدة من أخطر القضايا المتصلة بالحوار الراهن حول ظاهرة الإلحاد أن غيرَ قليل من الاجتهادات التي حاولت تفسير حجم الظاهرة بعد "ثورة ٢٥ يناير" في مصر ربطتها -آليًّا- بوصول الإسلاميين للسلطة، وما أشيع جزافًا - بصورة واسعة- من ربط السنة التي حكم فيها الإسلاميون مصر مع نفور كثير من الناس من التدين؛ بسبب بعض المتدينين، وهو نفور مزعوم، وتفسير أرى أنه غلب عليه التسييس إلى حد كبير.

وإذا شئنا الدقة فإن الإلحاد في مصر كان مدةَ سنوات ليست بالقليلة ظاهرة "خفية"، يُفضل أتباعه -إيثارًا للسلامة- ألا يجهروا بإلحادهم، ووفر مناخ الحرية الكبير بعد "ثورة ٢٥ يناير" فرصةً كبيرة لكل المكونات المجتمعية والمذهبية والدينية أن تعلن عن نفسها بلا مواربة، وبخاصة أن وجود الإسلاميين في السلطة لم يتجاوز عامًا واحدًا، فضلًا عن أن عمر الربيع العربي كله (وقت صدور كتاب براين وايتاكر) لم يكن قد تجاوز أعوامًا ثلاثة!

وهذا الذي أشير إليه لا يعني إعفاءَ أي متدين من المسؤولية -الأخلاقية في الأقل- عن أن يتسبب بقوله أو سلوكه في تنفير الناس من المتدينين أو من التدين أو من دينه أو من الأديان عمومًا؛ ذلك أن الناس ليسوا سواءً في الاستنتاج من الوقائع، وبعضهم يمكن أن يبني تقييمه لظاهرة على شواهد منقوصة، والعبرة هنا ليست بالتقييم المعياري الصارم الذي يقطع بوجود الصلة بين المقدمة والنتيجة أو يقطع بانتفائها.

وإذا كان لدى شخص ما تعريفه الخاص للدين فهو بطبيعة الحال سيرى في الدين -أي دين- كما يقدم نفسه للناس، وجهًا للتعارض مع تَصوُّرِه لمعنى الدين، ومثل هذا الشخص يصعب غالبًا أن يعتنق دينًا سماويًّا، وهو في الحقيقة يغيب عنه أنه بموقفه هذا لا ينفي وجود "الحقيقة المطلقة" كما يتوهم، ولا ينفي إمكان أن يدعي بعضٌ احتكارها، كما يردد كثير من المتحاملين -ابتداءً- على فكرة أن يكون للدين دور في الشأن العام، ومن أصرَّ على أن يكون له تعريفه الخاص للدين، يكون هو نفسه قد جعل نفسه مصدرًا للحقيقة المطلقة وجعل إلهه "هواه"!

وبعض حالات الإلحاد تكون مشكلته -دون مواربة- في رغبته في الانطلاق في المتع الدنيوية دون قيد "التحريم"، وفي الحقيقة فإن التحريم سمة ملازمة للشرائع السماوية، وقد لفت نظري أن ربَّ العزة عندما خلق آدم وزوجه جعل التكريم ملازمًا للتحريم؛ قال تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالمينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وكما هو واضح في الآية فإن التحريم لم يرتبط بتبرير أو تفسير عقلي!

ومن الظواهر الاجتماعية المرتبطة بالإلحاد -وبخاصة في الفئات العمرية الأقرب إلى الشباب والشرائح الميالة إلى التحرر اجتماعيًّا- أن يصطدم هؤلاء بقيود اجتماعية هي بنت "الثقافة المحافظة" السائدة، وليست أحكامًا شرعية على الإطلاق، ومع شيوع الخلط بين مفهومي: "العيب" و"الحرام"، يرد هؤلاء على "الخطأ" بـ"الخطيئة"؛ إذ يطلقون رصاصةَ الإعدام على كل ما له صلة بالدين.

وليس كل ما يمكن فهمُه يجوز تبريره!

وقد توقفت طويلًا أمام الصلة التي رآها بعض الملحدين بين موقفهم وبين التصوف؛ فحقيقة الأمر أنني على قناعة بأن بعض أشكال "التصوف الحلولي" هو إلحاد لا شبهةَ فيه، غاية ما في الأمر أنه اختبأ بعناية وراء لافتة التصوف، ووجد فيها درعًا حصينة!

وهو موضوع لا شك في أننا نحتاج إلى دراسته أشد الاحتياج؛ فالتصوف المتطرف كان في تجارب تاريخية كثيرة إحدى البيئات الحاضنة للإلحاد والإباحية.

وقد جمعت في سنوات مضت شواهدَ أدهشتني على حضور ملحوظ للإلحاد في أوساط النخبة الثقافية المصرية، لكنه إلحاد يفتقر إلى الشجاعة، ويعبر عنه بصدق ما كتبه المفكر التونسي المعروف الدكتور أبو يعرب المرزوقي تحت عنوان: "البهائية المتخفية والتحديث الاستبدادي"[1]، والبعد "الفرنكفوني" في ظاهرة "التحديث الاستبدادي" مما

(١) سلسلة مقالات مهمة نشرها في جريدة القدس العربي بدءًا من ٢٨ أكتوبر ١٩٩٩.

يحتاج إلى "الكثير" من البحث الدؤوب؛ إذ أسهمت الصلات الفكرية -والتنظيمية- بين فرنسا وطابور طويل من الظواهر الثقافية (والسياسية) العلمانية في العالم العربي بالنصيب الأوفر فيما وصلت إليه نسبة لا يستهان بها من العلمانيين العرب فيما يتصل بالموقف من الدين، بل الإصرار على "إعادة تعريف الدين"، من منظور وضعي. وما أشار إليه المفكر التونسي الكبير أبو يعرب المرزوقي في العام ١٩٩٩ نضجت ثمرته بعد سنوات.

وعلى سبيل المثال، في ٧ أكتوبر ٢٠٢١ نشر موقع "فرنسا بالعربي" الإخباري أن المتحدث باسم الحكومة الفرنسية غابرييل أتال قال: إن "رئيس الجمهورية إيمانويل ماكرون طلب من وزير داخليته جيرالد دارمانان أن يوجه رسالة واضحة إلى رئيس الأساقفة في البلاد بأن قانون الدولة الفرنسية يسمو على كل قوانين الكنيسة وسائر التنظيمات الدينية في جمهورية فرنسا الخامسة"!

وتبقى في الذاكرة -وفي الأرشيف الشخصي- قصص مثيرة عن الأكاديمية ذات النفوذ الكبير في عهد الرئيس المصري الأسبق محمد حسني مبارك، التي أكد لي مفكر ماركسي معروف أنها تعتنق البهائية سرًّا، والسياسي الناصري المعروف الذي تولى منصبًا حساسًا في عهد مبارك وكان معاديًا لنبي الله موسى عليه السلام "بمبررات وطنية"!

حتى أنه سبَّه؛ لأنه كان جاسوسًا على المصريين!

ويبقى أن أشيرَ إلى ملاحظة لفتت نظري ونظر أصدقاء باحثين في الظاهرة الدينية منذ سنوات هي أن الإلحاد في كثير من المجتمعات لا يشغل نفسه لا قليلًا ولا كثيرًا بنقد الأديان السماوية، فضلًا أن يحاول -كما يفعل كثير من الملحدين العرب- أن "ينقض" هذه الأديان!

ما قد يعني -ولو احتمالًا- أن الإلحاد في الواقع العربي المعاصر ردة فعل وليس موقفًا أصيلًا، وأن دوافعه الرئيسة كراهية للدين أو التدين أو المتدينين، وليس القناعة المبدئية بأن "الإلحاد" هو الإجابة الصحيحة عن السؤال العقائدي.

وهذا الكتاب يسعى إلى قراءة رسالة كتاب: "عرب بلا رب"، وتفكيك انحيازات

كاتبه، ووضع الضجة المفتعَلة حول الإلحاد في مجتمعاتنا العربية في حجمها الطبيعي، بعد أن أغرقتنا موجةٌ من الأدبيات -ورقية وافتراضية، مقروءة ومرئية- تلح مستندةً على حزمة أكاذيب بينها أن "ثورات الربيع العربي" انتفاضات ليبرالية "مؤدلجة" وضعت الدين والاستبداد السياسي في سلة واحدة وثارت عليهما، وأن الملايين من العرب كشفوا عن إلحادهم، بعد إخفائه سنوات خوفًا من "وحش" اسمه المجتمع يفترس الملحدين المساكين!

وفي غياب المعطيات الدقيقة والمعايير المنهجية امتلأ الفضاء العام بسردية منبعها ومصبها رغبة "مسبقة" في إدانة الدين والتدين والمتدينين، وبالقدر نفسه تَعَمُّد صبغ "ثورات الربيع العربي" بصبغة مُضَلِّلة، وتصويرها كما لو كانت "فجر عصر إلحاد عربي". وعليه؛ فلا مبالغة في تقرير أن سنوات ما بعد "ثورات الربيع العربي" شهدت موجة دعاية عالية للإلحاد، والجانب الأكبر مما نُشِر في هذا السياق، ليس مناقشة "جريئة" لملف "مسكوت عنه" بل تبشير بالإلحاد تحت ستار إخضاعه للتحليل.

ومن نماذج هذا التفسير "المغرض" الذي يغلب على مروِّجيه أنهم "فرنكفونيين": ما كتبه الباحث الفرنسي إينياس دال[1]، يقول: "رافقَت الثوراتِ العربيَّة -منذ نهاية العام ٢٠١٠- نقاشاتٌ في الحقلِ العامِّ حولَ مكانةِ الدينِ في المجتمعِ وحياةِ الفرد، وأعلنَ عددٌ من المسلمين تَشكُّكَهم في الدين، لا بل أشهرَ بعضُهم إلحادَه، لا سيَّما على الشبكاتِ الاجتِماعية، كع القمعِ المترَتِّب على ذلك". وفي مبالغة مكشوفة يكرر الباحث الفرنسي ما يردده كثيرون بإلحاح مشبوه، يقول: إن في العالم العربي: "عشرات، لا بل مئات الآلافِ من الملحِدينَ والكافرينَ والمشكِّكين"[2]!

(١) إينياس دال، صحفي سابقٌ في وَكالةِ الصحافةِ الفرنسية، عملَ سنواتٍ طويلةً في مُختلف دولِ العالم العربي.

(٢) إينياس دال، أولئك الملحدون الذين نكادُ لا نراهم في العالم العربي، موقع أوريان ٢١، ١٤ يونيو ٢٠١٦، الرابط:

https://orientxxi.info/magazine/article1374

وفي إطار هذه المزايدات المريبة نشر موقع إيلاف الإخباري ما نصه: مع حتى الآن، لكن هناك دراسة أمريكية صادرة عن مؤسسة بورسن مارستلير بنيويورك، كشفت أن عدد الملحدين في مصر وصل إلى ٣٪ من عدد السكان، أي: أكثر من مليوني ملحد، وفقًا لاستطلاع أجرته جامعة إيسترن ميتشيغان الأمريكية، وذلك بعد الحراك الشعبي الأخير الذي أعقب ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١"[(١)]، وبحسب استطلاع أُجري في ٢٠٠٩ كانت مصر تتصدر الدول الأكثر تَدَيُّنًا في العالم في العام ٢٠٠٩، بنسبة ١٠٠٪ (معهد جالوب)، وفي دراسة أجراها باحثون أمريكيون في العام ٢٠٠٤ -وهي تعد الأولى من نوعها في دراسة علاقة الانتحار بالدين- تبين أن أكثر المنتحرين من اللادينيين، قتلوا أنفسهم ليتخلَّصوا من تعاستهم.

والإلحاد بصفته سببًا للعنف ضد "الذات" (بالانتحار) أو ضد "الآخر" (بالإبادة) أحد أهم ملامح صورة الإلحاد التي يجري إخفاؤها، وبالتناقض مع الحقيقة سالفة الذكر يجري تسويق الإلحاد على أنه قرين للسلوك العقلاني "المسالم"، والحقيقة التاريخية المجردة تؤكد أن الإلحاد -على امتداد التاريخ الحديث- كان أحد أهم أسباب "الإبادة الجماعية"، مع أن القسط الأكبر من "الخطاب المخادع" السائد يروج للإلحاد على أنه "موقف احتجاجي" من ممارسات دموية يزعمون -إفكًا- أن الأديان مسؤولة عنها.

والإلحاد بصفته "واقعيًّا متعينًا" يختلف -بدرجات متفاوتة- عن "فكرة الإلحاد" في الأفراد والجماعات، كما أنه في مستوييه سالفي الذكر متعدِّد الوجوه يختلف باختلاف الزمان والمكان، وفي يناير ٢٠١٦ نشر مركز بيو للأبحاث الإحصائية تقريرًا خاصًّا بالإلحاد والملحدين في الولايات المتحدة الأمريكية، وكشفت عن أن بعض من يُعرِّفون أنفسهم على أنهم "ملحدون" يقولون في الوقت عينه: إنهم يؤمنون بالله، وأن كثيرين من

---

(١) أحمد حسن، تقرير، وصل عدد الملحدين إلى مليونين، شيخ الأزهر يحذر من انتشار الإلحاد في مصر، موقع إيلاف الإخباري، ١٩ أكتوبر ٢٠١٤، الرابط:

https://elaph.com/Web/News/2014/10/949085.html

بين مَن يصرحون بانتمائهم إلى دين معين يضيفون أنهم مع ذلك لا يؤمنون بالله، و٨٪ من الملحدين الأمريكيين يعتقدون بوجود الله أو "الروح الكلِّي" مع أن الإلحاد هو "الاعتقاد بأن الله غير موجود"، و٢٪ منهم "واثق" تمامًا من وجود ذلك الإله أو الروح الكلي -على حسب تعبيرهم اذلي لا نوافقهم عليه-[١]!

وفي العلاقة بين المستويين سالفي الذكر، يشير الكاتب عبد الله الأندلسي إلى أن الاعتقاد بوجود الله أو الاعتقاد بانتفاء وجوده لا يؤدي وحده إلى تغير السلوك، بل "يتغير السلوك سلبًا أو إيجابًا بما يتبع هاتين الفكرتين من رؤى كونية ومقولات ونظم اعتقادية"، و"بذلك، لا تمثل حالة الاعتقاد بوجود الله مسببًا مباشرًا لوجود الرؤية الكونية؛ إذ لا تنبع تلك الرؤى من فكرة وجود الله مجردة، بل لا بد لها من استناد إلى الدين والشرائع المختلفة اللاحقة لهذا الإيمان، الأمر ذاته ينسحب على حالة الإلحاد، فالرؤية الكونية تنبثق من الفلسفات المادية التي تستبعد التدخُّل الإلهي في الكون وتقرير مصائرنا كوننا بشرًا، كالشيوعية[٢] والداروينية الاجتماعية[٣]

---

(١) ١٠ "حقائق" عن الإلحاد والملحدين في الولايات المتحدة، تقرير، موقع مونت كارلو الدولية، ١٠ أكتوبر ٢٠١٦، الرابط:

https://cutt.us/gy79A

(٢) الشيوعية: مصطلح يعبر عن نظام سياسي واجتماعي يقوم على الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج، وقد أظهرت تجربة البلدان الشيوعية سابقًا أن هذا النظام غير قابل للحياة؛ بسبب غياب التعددية، تعود الشيوعية -نظريةً سياسية متكاملة- إلى أواخر القرن الثامن عشر عندما تبلورت على يد المنظِرين: كارل ماركس وفريدريش إنجلز، في منشورات كثيرة أشهرها: "البيان الشيوعي"، و"رأس المال". وقد طبق فلاديمير لينين نظرية ماركس وطورها بعد سيطرة البلاشفة على السلطة في روسيا عام ١٩١٧.

راجع:

موقع الإذاعة الدولية لألمانيا إلى العالم الخارجي أو دويتشه فيله (Deutsche Welle – اختصارها: DW)، ٣ سبتمبر ٢٠٢٣، الرابط:

https://cutt.us/r60ej

(٣) الداروينية الاجتماعية: النظرية القائلة بأن المجموعات البشرية والأجناس تخضع للقوانين نفسها التي

والفاشية[١] وغير ذلك" و"لا يوجد مؤمن يقتل باسم (وجود الله)، لكنه يقتل باسم الدين، وكذلك لا يوجد ملحد يقتل باسم (عدم وجود الله) وإنما يقتل الملحد باسم الفلسفات المادية والرؤى الكونية التي يؤمن بها تبعًا لإلحاده"[٢].

= تحكم "الانتقاء الطبيعي" التي تصورها تشارلز داروين في النباتات والحيوانات. ووفقًا لهذه النظرية، التي كانت شائعة في أواخر القرن التاسع عشر، حاز الأقوياء نفوذًا على الضعفاء بناءً على هذه القوانين الحتمية. ويرى معتنقو الداروينية الاجتماعية أن حياة البشر في المجتمع صراع من أجل الوجود يحكمه "البقاء للأصلح"، وهي العبارة التي اقترحها الفيلسوف والعالم البريطاني هربرت سبنسر. ويعتقد معتنقو "الداروينية الاجتماعية" أن عملية الانتقاء تؤدي إلى بقاء أفضل المنافسين؛ إذ إن المجتمعات كائنات حية تتطور. تراجعت الداروينية الاجتماعية في القرن العشرين؛ إذ أدت المعرفة الموسعة بالظواهر البيولوجية والاجتماعية والثقافية إلى تقويض مبادئها الأساسية بدلًا من دعمها.

ارجع إلى:

Britannica، The Editors of Encyclopaedia. "social Darwinism". Encyclopedia Britannica، 15 Sep. 2023.

https://www.britannica.com/topic/social-Darwinism. Accessed 2 October 2023.

(١) الفاشية: مفهوم سياسي يعبر عن نظام ديكتاتوري. أسس الفاشية في القرن ٢٠ بينيتو موسوليني (١٨٨٣-١٩٤٥م) وتتجسد في شكل نظام حكم يرأسه دكتاتور يسيطر على مختلف أنشطة المجتمع: السياسية والاقتصادية والاجتماعية، سيطرة تامة. والفاشية شبيهة بالشيوعية، من حيث امتلاكها أو إشرافها على جميع الموارد العامة. ولكنها -بخلاف الشيوعية- تبيح بقاء الصناعة ملكية خاصة لكن تحت سيطرة الحكومة، وتشمل الفاشية: التطرف الوطني والسياسات النازعة للروح العسكرية، ويأتي الفاشيون إلى السلطة إثر حدوث انهيار اقتصادي أو هزيمة عسكرية أو أية كارثة أخرى. وعادةً، يكسب الحزب الفاشي، تأييدًا شعبيًّا لِما يبذله من وعود بأنه سينعش الاقتصاد، وبعد استلامها الحكم في بلد ما، تقيد الفاشية الحريات الشخصية، وتهيمن على أجهزة الإعلام، وتروج سياساتها وتقمع آراء مناوئيها، وتُعلِي شأن عرق معين.

راجع:

هيثم الكيلاني، الفاشية، الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، السعودية، الطبعة الأولى، ١٩٩٦، المجلد الرابع عشر، ص ٢١٥،

(٢) إبراهيم السيد، الإلحاد والعنف.. كيف صنع ملحدون أهم مجازر العالم وحروبه؟، موقع الجزيرة نت، ٤ يوليو ٢٠٢٢، الرابط:

=

وتلك العلاقة الفلسفية بين الإلحاد والجرائم التي يرتكبها معتنقوه، اختصرها الكاتب الأمريكي دينيش دسوزا قائلًا: "ارتُكبت جرائم الإلحاد عمومًا من خلال أيديولوجية متغطرسة ترى أن الإنسان هو صانع القِيم وليس الله".

وفي هذا الإطار نشر الباحث نفيد شيخ، أستاذ العلاقات الدولية المحاضر في جامعة كيل البريطانية، دراسةً مثيرة بعنوان: "عداد القتلى: دراسة إحصائية للعنف السياسي في حضارات العالم". وراجع فيها كل الحروب التي جرت بين الدول، وضمن ذلك الحروب الأهلية والمذابح العرقية والجماعية وغير ذلك من الأحداث العنيفة التي تخطى عدد القتلى في الحدث الواحد منها ١٠،٠٠٠ قتيل؛ ليقرأ هذه الأحداث التي جرت منذ العام الأول الميلادي إلى العام ٢٠٠٨ الميلادي، وحصر شيخ ٢٧٦ حدثًا عنيفًا ضخمًا في هذه الحقبة الزمنية الكبيرة، ثم صنَّف ديانات العالم إلى ٧ ديانات وحضارات رئيسة:

الإلحادية. البوذية. المسيحية. الهندوسية.
الإسلامية. البدائية. الصينية.

واضعًا -وفق تصنيفه- كل حدث عنيف في الحضارة التابعة له، مع إحصاء عدد القتلى في كل حضارة، وجاءت نتائج الدراسة مغايرة للسائد مغايرة صادمة؛ إذ تصدرت الحضارة المسيحية قائمةَ أكبر المتسببين في حصاد أرواح البشر، تَبِعتها مباشرة في المركز الثاني حضارة الملحدين بحصاد للقتلى يفوق ١٠٠ ألف قتيل، وقد يصل عدد الضحايا -حسب بعض التقديرات- إلى ١٥٠ ألف قتيل. "وهو ما يناقض تمامًا بروباجندا فردوس السلام الإلحادي الذي لا يتوقف مدَّعوه عن تسويقه رسالة سامية جاءت لتنقذ الناس من عنف الأديان"[(١)].

---

https://cutt.us/Yqdhp =

(١) إبراهيم السيد، الإلحاد والعنف.. كيف صنع ملحدون أهم مجازر العالم وحروبه؟، موقع الجزيرة نت، ٤ يوليو ٢٠٢٢، الرابط:

https://cutt.us/Yqdhp

وقد وثَّق: "الكتاب الأسود للشيوعية: الجرائم والإرهاب والقمع"، الذي أصدره مجموعة أكاديميين عام ١٩٩٧م عددَ ضحايا الأيديولوجيا الشيوعية الإلحادية، وأُولى المذابح الجماعية في العصر الحديث كانت مذبحة فاندي (فينديه) عام ١٧٩٣م في فرنسا؛ حين تمردت عقب الثورة الفرنسية قطاعات من الشعب الفرنسي على السلطة العلمانية الجديدة، فما كان من السلطة إلا أن قابلت هذه التمردات بالقمع الغاشم والفوري، وفي عام ١٧٩٣م تحالف فلاحون متمردون مع متدينين كاثوليك، فطبقت عليهم حكومة "التنوير" سياسات شديدة الوحشية، أُعدِم إثْرَها أكثر من ٦،٠٠٠ أسير أكثرهم نساء وأطفال وشيوخ، وأُغرق أكثر من ٣٠٠٠ امرأة في المياه، فضلًا عن ممارسات وحشية أخرى، وبحلول عام ١٧٩٦م، وصل إجمالي عدد القتلى -طبقًا لبعض الإحصاءات- إلى نحو نصف مليون إنسان: حرقًا، غرقًا، ذبحًا، أو دهسًا تحت أقدام العربات والخيول، ومع عدم شهرة هذا الحدث إلا أن أستاذ التاريخ البريطاني ألان فورست يقول: إنه "حتى الآن يتذكر الغرب هذه المذابح كصراع بين الفلاحين والكاثوليك على جهة وبين الجمهوريين والملاحدة على الجهة الأخرى"[(١)].

وأحد مشكلات النقاش حول الإلحاد تلك الطبيعة "التبشيرية" التي يجري بها ربطُه بالعقل والعقلانية، مع وصمِ الأديان بمعاداة العقل، وصورة الإلحاد تتسم -بحسب الباحث مصطفى - بنرجسية شديدة؛ إذ هو "عقلاني، وقادر على الحجاج المنطقي"، و"براهينه وأدلته علمية، ومنهجيته صارمة" بينما الإيمان مجموعة مسلَّمات ويقينيات قلبية "ينقصها الدليل وتُعوزها الحجة، ويغيب عنها برهان العقل وأنواره"، والإلحاد المعاصر "كرر مقولات الملحدين السابقين، ولم يأت بجديد"، لكن الملمح الأبرز فيه "أن العلم والتقدم التكنولوجي والمعلوماتي خَلْق نرجسية للإنسان وغرورًا كبيرًا؛ فظن أنه "إله" في الكون، وأنه يستطيع أن يستغني عن "الله"؛ لذا انتقل ذلك الإلحاد من إنكار

(١) إبراهيم السيد، الإلحاد والعنف.. كيف صنع ملحدون أهم مجازر العالم وحروبه؟، مصدر سبق ذكره.

وجود الله إلى نفي أيِّ دور لله في الوجود، وهو ما نقل الإلحاد من الوثنية القديمة إلى النرجسية المعاصرة، المغتَرَّة بالعلم، والمتضخِّمة في ذاتها، والظانة أنها بالعلم قادرة على فعل أي شيء ما دام الخالق منعزلًا عن الوجود ومُفَوِّضًا صلاحياته للإنسان"[١].

وفي يناير ٢٠١٦ نشر مركز بيو للأبحاث الإحصائية تقريرًا خاصًّا بالإلحاد والملحدين في أمريكا، ومن نتائجه: أن الملحدين لا يلتفتون إلى الدين لاستقاء الأجوبة حول قضايا الصواب والخطأ، بل إلى العلم، و٣٢٪ من الملحدين قالوا: إنهم ينظرون في المقام الأول إلى رأي العلم[٢].

ولما كان كتاب: "عرب بلا رب" يناقش -مباشرة- الإلحادَ في المجتمعات العربية؛ فإنه من الضروري المرور سريعًا على تاريخ ظاهرة الإلحاد في عالمنا العربي الإسلامي، والإلحادَ الحديث، لم يظهر في العالم الإسلاميِّ سوى في أواخِرِ القرنِ ١٩، ويرى صامولي شيلكه عالم الأنثروبولوجيا الألمانيُّ الباحِثُ في مركزِ الشَّرقِ الحديثِ ببرلين أنَّ أوائلُ من يسميهم: "المفكِّرينَ الأحرار" (أو الملحدينَ) ظهروا إبَّان ما يسميه: "عصرَ التوسُّعِ الإسلاميّ" (أي: الفتوحات الإسلامية)، بينما الموجة الثَّانية منهم ظهرَت في النِّصفِ الثَّاني منَ القرنِ التَّاسعِ عشر. و"في الواقعِ، دفعَ الاستعمارُ الغربيُّ بعضَ المفكِّرينَ إلى التَّشكيكِ في تقاليدِ ونظامِ مجتمعاتِهم". و"ظهرَت في الولاياتِ العربيَّةِ الخاضعةِ للإمبراطوريَّةِ العثمانيَّة -بين المسلمين والمسيحيِّينَ على حدٍّ سَواء- تياراتٌ قوميّةٌ مناهِضةٌ للإكليريكيَّةِ وللدِّين". و"كانَ السُّوريُّ عبد الرحمنِ الكواكِبيُّ -بدون أن يُشهِرَ إلحادَه- من أوائلِ المفكِّرينَ العربِ الَّذينَ طالَبوا بفصلِ الدِينِ عن الدَّولة، مُتَّهِمينَ

---

(١) مصطفى عاشور، نرجسية الإلحاد المعاصر، ٢٤ مايو ٢٠١٧، موقع إسلام أون لاين، الرابط:
https://islamonline.net/21502

(٢) ١٠ "حقائق" عن الإلحاد والملحدين في الولايات المتحدة، تقرير، موقع مونت كارلو الدولية، ١٠ أكتوبر ٢٠١٦، الرابط:
https://cutt.us/gy79A

المتديِّنينَ التقليديِّينَ" بـ"فرضِ سلطَتِهِم على مجموعةٍ منَ المؤمنينَ السُّذَّج... وهكذا، كان نقدُ الملحدينَ أو المتَشكِّكينَ يركِّزُ على استخدامِ الحُكَّامِ العرَبِ للإسلامِ كأداةٍ لخِدمَةِ أغراضِهم، أكثرَ من تركيزِهِ على مسألةِ وُجودِ الله"[١].

وبحسب الدكتور عبد الرحمن بدوي فإن دعوة الملحدين العرب اقترنت بما أسماه: "موت فكرة النبوة والأنبياء"، يقول: "وإذا كان الإلحاد الغربي بنزعته الديناميكية هو ذلك الذي عبَّر عنه نيتشه حين قال: (لقد مات الله)، وإذا كان الإلحاد اليوناني هو الذي يقول: "إن الآلهة المقيمين في المكان المقدس قد ماتت"، فإن الإلحاد العربي هو الذي يقول: "لقد ماتت فكرة النبوة والأنبياء"..."[٢].

وفي العالم العربي في القرن ٢١، يتمحور الجانب السياسي من جدل الدين والإلحاد حول "فصل الدين عن الدولة" (والأدق: إخلاء الفضاء العام نهائيًّا من الإسلام)، وأدت الأقليات الدينية منذ القرن الثامن عشر دورًا كبيرًا في ذلك. وخطاب رموز هذا التيار الطائفي يخفي "البُعد الطائفي" في موقفهم المفتقر إلى الاتساق -منهجيًّا ووطنيًّا- وراء مفردات قاموس "الوضعية الأوربية"؛ غذ إن التاريخ مسار خطي تمثل الأديان فيه "مرحلة زمنية" سوف تتجاوزها البشرية حتمًا، وصولًا إلى "عبادة العقل/ العلم"، وفي الطريق إلى هذه "اليوتوبيا الإلحادية"، ينبغي -مرحلةً انتقاليةً- طرد الإسلام من الفضاء العام ليصبح "شأنًا فرديًّا خالصًا" لا يغادر باب المنزل مطلقًا!

يقول الدكتور ميلاد حنا المفكر القبطي الراحل: إن "عصر الأديان انتهى، ولم يعد للدين أيُّ دور في حياة الشعوب"، و"الدولة ليس لها دين" و"الدين للأفراد". وأضاف حنا: "العالم عاش "حقبة الأديان" ثم تجاوزها، بدأت هذه الحقبة منذ ما يزيد على ٣

---

(١) إينياس دال، أولئك الملحدون الذين نكاد لا نراهم في العالم العربي، موقع أوريان ٢١، ١٤ يونيو ٢٠١٦.

(٢) معاذ بني عامر، الإنسان والعدم: عن الإلحاد ورفض النص الديني، موقع مؤمنون بلا حدود، ٢٣ أبريل ٢٠١٦، الرابط:
https://cutt.us/jNpRp

آلاف سنة، حينما ظهرت اليهودية، ومن ٢٠٠٠ سنة حينما ظهرت المسيحية، ومن ١٤٠٠ سنة حينما ظهر الإسلام... هذه الحقبة انتهت... وانتقلنا بعد ذلك إلى حقبة أخرى هي حقبة الأيديولوجيات، وظهرت فكرة العلمانية، وهو ما يعني فصل الدين عن الدولة، وبمعنى آخر: تراجع دور الدين في الحياة السياسية في أوربا"، وهذه "بداية عصر النهضة في أوربا"[١].

وفي "تحريف" واضح لمسار التاريخ الحديث يقول ميلاد حنا: "ظهرت الأيديولوجيات بعد ذلك في الشرق، وبدأت بالدولة العثمانية، وظهرت أفكار أخرى كثيرة مثل الماركسية والشيوعية، وانتهى كل ذلك، وأصبح الدين في العالم فرديًّا وليس جماعيًّا"، وفي تعليقه على الأزمة الكبيرة التي حدثت في وقت هذا الحوار بسبب "الرسوم الدانماركية" المسيئة للرسول ﷺ قال ميلاد حنا عن الدانمارك: "لا.. ليست مسيحية"، مع أن عَلمها مرسوم عليه الصليب، لكنه "علم تاريخي، وإذا ذهبت إلى هناك ستجد الكنائس خاوية، الدين انتهى هناك، وهناك أيضًا مَن يطالب بأن نترك الدين جانبًا، وأن نعيش العصر ونتعامل مع معطياته، ويجب أن يعمم ذلك في العالم كله، وفي مصر أيضًا"[٢]!

ولا تعليق!

ومع أن الإلحاد في الكثير من أنحاء العالم كان -حتى وقت قريب- لا يعني بالضرورة استهداف دين معين بهدف تقويضه، إلا أن العقود القليلة الماضية تشهد صراعًا بين الملحدين والإسلام ينبغي أن يكون موضوعًا للدراسة والتحليل، وأحد نقاط

---

(١) محمد أبو زيد (حوار)، المفكر السياسي ميلاد حنا لـ"المصري اليوم"، جريدة المصري اليوم، مصر، ٨ مارس ٢٠٠٦، الرابط:

http://today.almasryalyoum.com/article2.aspx?ArticleID=9025&IssueID=202

(٢) محمد أبو زيد (حوار)، المفكر السياسي ميلاد حنا لل "المصرى اليوم"، جريدة المصري اليوم، مصر، ٨ مارس ٢٠٠٦، الرابط:

http://today.almasryalyoum.com/article2.aspx?ArticleID=9025&IssueID=202

التماسِّ الرئيسة في هذا السياق "حد الردة"، وهو يستهدف بخطاب "حقوقي" يرى أن "الإعدام" -أيًّا كان سببه- عقوبة تتعارض مع "المعايير الإنسانية". وهناك أكثر من عشرة بلاد تجيز قوانينها إعدامَ من يعتنق الإلحاد، أو يرفض دين الدولة الرسمي، بحسب تقرير جديد نشره: "الاتحاد الإنساني والأخلاقي الدولي".

ومن ناحية أخرى، في بريطانيا -التي تعترف بحق المرء في تغيير دينه- هناك عدد متزايد من الأشخاص يختارون تحديدَ هُويتهم بالدين الذي تركوه، وفي هذا الإطار أُنشئ ما سُمي: "منتدى المسلمين السابقين"، بادئًا بنحو ١٥ شخصًا أصبحوا مسلمين سابقين، وأصبح له فرع أمريكي: "منظمة المسلمين السابقين في أمريكا الشمالية". وأوضحت مريم نمازي، المتحدثة باسم المنتدى المنضوي في مجلس المسلمين السابقين في بريطانيا، أن فكرة الكشف علنًا عن ترك الإسلام "أن نُبيِّن أننا موجودون"![1].

...

أسأل الله العلي القدير أن يجعل هذا الجهدَ خالصًا لوجهه، وأن ينفع الناس به، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبله، وأن أجده -بفضله- في ميزان حسناتي يوم القيامة.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

ممدوح الشيخ

القاهرة

أكتوبر ٢٠٢٣

---

(١) الخوف أول عوامل إخفائهم الأمر عن عائلاتهم، ملحدون يتحدثون عن تجربتهم بعد تخليهم عن الإسلام، ترجمة: عبد الإله مجيد، موقع إيلاف الإخباري، ٢٠ يناير ٢٠١٤، الرابط:

http://elaph.com/Web/news/2014/1/869359.html#sthash.Tu6HqFkP.dpuf

الفصل الأول: الإلحاد حدود وسياقات

كل نقاش حول الإلحاد لا ينفصل بالضرورة عن تصورنا للإلحاد، والقاعدة الأصولية الذهبية أن "الحكم على شيء فرعٌ عن تَصوُّره"، وأحد مشكلات القسم الأكبر من الكتابات العربية عن الإلحاد أنها لم تنطلق من "تَصوُّر" الإلحاد (أي: حقيقته) بل من "ادعاءات الملحدين" والقسم الأكبر منها تلفيقات تبشيرية استهدفت تجميل الإلحاد، والنقاش حول الإلحاد في الثقافة العربية الإسلامية هو نقاش حول تنازع الأسبقية بين "الوحي" و"بدائل الوحي"، ومن الخطأ ترديد أكذوبة أن التنازع هو بين "العقل" و"النقل"، ذلك أن الإلحاد في كثير من صوره لا يستهدف إحلال "العقل" محل "النقل" (وبتعبير أكثر تحديدًا: الوحي)، وغير قليل من الإلحاد لا عقلاني حتى النخاع!

*** تمهيد منهجي: العلم والمنهج واليقين:**

يتأسس الموقف من الدين والإلحاد معًا على تصور -الفرد والجماعة- لمعنى اليقين ومناهج الوصول إليه، والسمة الرئيسة للنقاش المنهجي حول هذا النزاع تأكيد أولية "العقل" على "النقل"، و"النقل": إما أن يكون عن سالف، أو عن مصدر مفارق لعالم الموجودات المادية، فإن كان النقل عن سالف كان اتباعًا أعاد إنتاج ظاهرة الشرك (معرفة الحق بالرجال)، فإن كان ذلك السلف وسيلة للنقل لا مصدرًا للحق تساووا في ذلك مع غيرهم من وسائل النقل. أما النقل عن مصدر مفارق للموجودات، وهو ما تسميه الأديان السماوية: "الوحي" فهو توقيف مفارق لعالم الموجودات المادية يدركه العقل البشري ولا يحتويه، يفهمه ولا يقدر على إنتاجه، ولإدراك الحق بين ادعاءات المدعين وسائل تمحص الغث من السمين، وأولها الحدس؛ فلا يقين بغير حدس، ظاهرًا كان أو مضمرًا.

وقد يتأسس التمحيص على التعقل، وقياس لزوم النتائج عن مقدماتها، لكن ذلك لا يعدو أن يكون تسويغًا تتدخل فيه ميول النفس وما يزينه الحدس، وإن لم يدركه الموقن نفسه، وبقدر لزوم الحدس لكل يقين يلزم "التسليم" بمعرفة أولية لكل يقين، فإذا أخذ

كل جيل من البشر على عاتقه مهمة إعادة النظر عقليًّا في المسلَّمات بادئًا من نقطة الصفر المعرفية (على افتراض وجود هذه النقطة؛ إذ لا وجود لها في الحقيقة)، فمن المؤكد أن يؤدي ذلك إلى توالي أجيال متعاقبة لا تتوارث إلا الشك، والكفر بالحق بصفته مفهومًا مجردًا. وسنعود لاحقًا إلى قضية "التسليم" و"المسلمات".

وافتراض أن اعتناق دين ينبغي أن يكون اختيارًا في كل جيل، وأن كل فرد عليه البدء من نقطة "حياد عقائدي" خيالية، وأن يجرد بنفسه أدلةَ صحة كل غيبيات ما يؤمن به أكذوبة إلحادية كبرى.

وينبغي أخذ الحقائق الآتية في الاعتبار لتقييم فرضية بدء (الأفراد والمجتمعات من نقطة صفر عقائدية مُتَخَيَّلة):

- عمر الإنسان في حده الأقصى قرن من الزمان.
- خُمس هذا القرن -وهو تقريبًا (٢٠ عامًا)- ينقضي قبل اكتمال الإدراك العقلي والقدرة على البحث والاستنتاج والتجريد والتعميم، وكلها من لوازم السعي نحو بلورة مفهوم لليقين من غير طريق الوحي أو اتباع الأسلاف.
- عمر الإنسان يذهب ربعه أو أكثر قليلًا (٢٥، ٣٠ عامًا) في النوم.
- كل استثناء من هذه المتوسطات -زيادة أو نقصًا- يؤكد القواعد المطردة ولا ينفيها.
- إذا افترضنا أن الإنسان يمكن أن ينفق ما تبقى من عمره (٥٠ إلى ٥٥ عامًا) في البحث العقلي المجرد عن اليقين، بدون أن تشغله معايش أو عوارض (عمل، طعام، راحة، مرض...) فإنه لن يكون قادرًا على الوصول للحق.
- ذلك أن حجم المعارف والنظريات التي تراكمت في وعي البشرية ومدوناتها يجعل تحقيقَ مثل هذا الغرض وهمًا لا يدرك.
- يتطلب هذا وجوبًا قراءة الكتب المقدسة للأديان السماوية والعقائد الأرضية والفلسفات الكبرى (ومن ثَم القدرة على معرفة لغاتها أو الحصول عليها مترجمةً)، بل

قد تشمل الضرورةُ الاطلاعَ على مصادر أخرى، مثل: السنة النبوية في الإسلام، وكتابات لاهوتية مسيحية أساسية، والتلمود والمشناة في اليهودية، وسير الأنبياء وتواريخ مؤسسي العقائد الأرضية و...

• يتفاوت الناس في قدرتهم على التفكير في المجردات والغيبيات والكثرة الغالبة لا يستطيعون الوصول إلى هذا الترجيح الذي يبدأ من "الصفر العقائدي الخيالي" في حياة كل فرد، وكثير من البشر لا يزالون محدودي التعليم، وتطبيق هذه القاعدة الإلحادية عليهم مؤداه أن يعيش مليارات البشر في حالة شك وعجز عن اختيار دين معتقد أرضي لاعتناقه.

• يؤدي هذا بالضرورة إلى ظهور طبقة، أو فرد، تخص نفسها بالقدرة على إنتاج الحق؛ فيعود الإنسان إلى فكرة الكهنوت مرة أخرى؛ حيث الكهنة وحدهم مصدر الحق، وهو باب من أبواب الشرك أغلقه الإسلام عندما جعل العلاقة بين الله والإنسان علاقة مباشرة، وجعل فكرة الخلاص قابلة للتحقق وفق قوانين مطردة، وزوَّد كل الإنسان بالمَلَكات التي تمكنه من الحصول على الخلاص، بعلاقة مباشرة مع الإله، مدارها أفعال قابلة للكسب، لا تقتصر على جنس، ولا تتوقف على مباركة وسيط أيًّا كان.

• يخطئ بعض عندما يتصور أن عليه اختراع المسلَّمات لا اكتشافها، فالمسلَّمات جزء من نظام كوني يحتوي الإنسان ولا يحيط به الإنسان.

• طرق اليقين متراتبة لا تتساوى وإن بدت متوازية، ولكون إدراك اليقين مسألة مركبة، فحتى الآن في الأقل يعد بسطها بسطًا مفصلًا مما يستعصي على العقل؛ فلكي يدرك العقل اليقينَ ينبغي أن يدرك:

أولًا: أنه عقل.

ثانيًا: أنه يعقل.

وأن يدرك كذلك كيفية أو كيفيات التعقل ولوازمه (المقدمة، النتيجة، اللزوم، الجوهر، العرض، المتعين-المجرد، القانون العام، الثابت، المتغير...)، وأن يدرك

كذلك مشكلات التعقل (الإدراك) ومزالقه؛ حتى يتبين الحقيقيَّ من الزائف مما يعقله، أو يظن أنه يعقله، ثم ينبغي أن يدرك أن ثمة يقينًا.

• قد يصرفنا عن التفكير في هذا أننا تلقينا ذلك عمن سبقونا، لكن من سبقونا تلقوه هم أيضًا عمن سبقوهم... وهكذا حتى نصل إلى أول متعقل.

• هذا المتعقل الأول يظل مجرد فرض لا يقوم عليه دليل قاطع، ولا يستقيم تأسيس اليقين على فرض؛ فالقول بأن الإدراك العقلي حدث طفرةً بيولوجية، في تاريخ متسلسل الحلقات من التطور بدأ بالأميبا وانتهى بالإنسان، تكذبه معطيات كثيرة، فضلًا عن أنه لا يتمتع بوجاهة عقلية تجعله أرجحَ من القول بوجود إله خالق لا تدركه الحواس، فكلاهما غيب.

• المسلَّمات موجودة في كل التصورات الحضارية، سواء تأسست على الإيمان بوجود قوة وراء الوجود خلقته ومنحته المعنى، أو تأسست على أن هذه القوة خلقت الكون وأودعت فيه قوانين الحركة ثم تركته، أو تأسست على إنكار وجود هذه القوة ورفض مقولة الخلق، وقد تكون هذه المسلمات كامنة يحتاج إدراكها إلى جهد عقلي.

• العقل طريقًا لإدراك الموجودات، وصولًا إلى إدراك اليقين يدركها بناء على منهج، ومناهج البحث ظلت تتطور وتنضج حتى أصبحت معروفة لكل الحضارات.

• ما يحدد نطاق استخدام كل منهج هو الإطار الحضاري والقيمي، فهو سابق على المنهج، وثمة تأثيرات متبادَلة بين المنهج ومستخدمه، وهو تأثير يثمر تحيزاتٍ معرفية لا يمكن إدراكها إلا بالنظر إلى القضايا نفسها عن طريق منهج مغاير.

• في الطريق إلى اليقين يكون مدار عمل العقل فهم المحكم من النقل، وتأويل ما يقبل التأويل منه، والاجتهاد فيما سكت عنه العقل، وهو في كل ذلك يسترشد بالبدهيات والحقائق النقلية التي لا تقبل التأويل.

• الانتقال من الحالات الفردية إلى القانون العام في أي استقراء يقتضي أن يدرك العقل معاني: المقدمة، والنتيجة، والمتعين، والمجرد، والقانون العام، والثابت،

والمتغير... وهنا نصبح أمام ما يسميه المناطقة: "الدور" ما لم نقل بالأفكار السابقة على اليقين؛ فيعود الوحي للهيمنة على العقل.

• أول ما يضل الناس عن الحق حصرُه بين حدود متقابلة ينشئها العقل أو العرف ويجعلها مقياسًا له، بل الحق يدرك أولًا، ومنه تُستنبط ثوابت منطق التفكير، وهي تسبق المناهج، وتضع حدودًا لاستخدامها، وأول ما يوجبه الحق الاتباع و"التسليم"، فالله واحد لأنه واحد، وليس فقط لأن المنطق يقتضي ذلك.

• عندما يقدم المنطق ما يؤيد الحق؛ فإنه بذلك يدل على الحق ولا ينشئه.

• إذا أدرك الموقن بالحدس ودلَّه العقل، وربما أعانته الشواهد الحسية في حقائق جزئية، صار عليه أن يقبل من هذا المصدر ما يوحي إليه به من حقائق عن الكون والإنسان وعالم الغيب وعالم الشهادة، وأن يطيع أوامره ونواهيه.

• إذا اشترط الإنسان على نفسه ألا يتبع من الحق إلا ما استطاع إدراك كنهه؛ فقد جعل نفسه مساويًا لمصدر الحق.

• إن ألزم الإنسان نفسه بأن يترك من الحق ما لا يدل عليه العقل؛ فقد جعل العقل مقياسًا للحق، بل إن العقل عندئذ يصبح "مصدرًا للحق ومقياسًا له في آن واحد"، ولو كان العقل قادرًا على ذلك لَكان أولى بأن يكون قادرًا على إنتاج الحق ابتداء، وادعاء الإنسان قدرة العقل البشري على إنتاج الحق يعني: وجود "إنسان معياري"؛ فالناس متفاوتون حسًّا وعقلًا في القدرات العقلية عمومًا.

• لكون الإدراك حالة عقلية نفسية مركبة فإن الإنسان يلجأ أحيانًا إلى حيل يحاول بها الهروب من حتمية اليقين وواحديته؛ إذ يحاول صُنع مسافة بين "النقل" وتأويله.

• المسافة بين النقل وتأويله موطِئَ قدم لا يلبث أن يتسع حتى يتحول الفرع إلى أصل، ويحل محل الأصل نفسه، وفي هذه الحالة يصبح التأويل في حد ذاته هدفًا ويصير النقل إناء يفرغ فيه العقل قناعاته، وهنا تأتي أهمية التفرقة بين "الثابت" و"المتحول"، وهو ما يعبر عنه في الإسلام بمصطلحي "المحكم" و"المُتشابه"، فيصبح المحكم

سياجًا يمنع التأويل من تخريب النص.

• من الإشكالات الرئيسة في فهم الذات والوجود: ظاهرة إسقاط "التصور على الوجود"، بدلًا من "استنتاج التصور من الوجود".

• من يتقصى موقف الإسلام في هذه النقطة يجد أنه منحاز بوضوح إلى "استنتاج التصور من الوجود"، ولا يُقصَد بذلك أبدًا الاقتصار على الوجود المادي مصدرًا "واحدًا" و"وحيدًا" للمعرفة، بل إعمال البصر والبصيرة لإدراك الحقائق والسنن الكونية معًا، ونعني بذلك التعلم من تجارب السابقين، وكذلك الحض على إدراك الحقائق المادية الجزئية، الدعوة إلى إدراك الكون المحيط بالإنسان على أنه حقيقة من الحقائق الكلية.

• عمل الحواس هنا ليس منفصلًا عن عالم "القناعات المسبقة". وعليه؛ فإن الانطلاق لإدراك الحقائق الجزئية أو الكلية أو السنن الكونية مشروط بأن يكون بدون "أوهام" مسبقة، فكما علَّمَنا أئمة أصول الفقه فإن "الحكم على شيء فرع عن تصوره"، فإذا كان هذا التصور مشوهًا أو مدخولًا كانت التصورات التي نؤسسها عليه بالضرورة خاطئة.

• من أخطر نقائص العقلانية الإلحادية: التلاعب بمعايير تصنيف الظواهر، ومن وجوهها هنا: المساواة بين الحق وبالباطل كما لو كان هذا من لوازم المنهج العلمي، وفي الحقيقة فإن الحياد الصحيح يكون بإزاء الظواهر المتماثلة التي لا سبيل للإرادة في إدراكها، فالتفرقة -مثلًا- بين الأديان السماوية والوضعية موقف إرادي يتخذه صاحبه بإرادة واعية وبصورة قصدية.

• المساواة بين الحق والباطل أمر اتخذ منه الإسلام موقفَ الرفض بلا مواربة، يقول ابن حزم الظاهري تحت عنوان: "الكلام على من قال بتكافؤ الأدلة":

"ذهب قوم إلى القول بتكافؤ الأدلة، ومعنى هذا: أنه لا يمكن نَصرُ مذهب على مذهب، ولا تغليب مقالة على مقالة حتى يلوح الحق من الباطل ظاهرًا بيِّنًا لا إشكال فيه، بل دلائل كل مقالة فهي مكافئة لدلائل سائر المقالات، وقالوا: كل ما ثبت بالجدل فإنه

بالجدل يُنقَض، وانقسم هؤلاء إلى أقسام ثلاثة: فيما أنتجه لهم هذا الأصل؛ فطائفة قالت بتكافؤ الأدلة جملة في كل ما اختُلِف فيه، فلم تحقِّق الباري تعالى ولا أبطلته، ولا أثبتت النبوة ولا أبطلتها، وهكذا في جميع الأديان والأهواء لم تُثبت شيئًا من ذلك ولا أبطلته، إلا أنهم قالوا: إننا نوقن أن الحق في أحد هذه الأقوال بلا شك، إلا أنه غير بيِّن ألبتة ولا ظاهر ولا متميز أصلًا"[١].

• من أخطر نقائص العقلانية الإلحادية أيضًا: إحلال "غيبيات العلم" محل "غيبيات الوحي"، وهكذا "آثر الإنسان الغربي كل هذه الرحلات الافتراضية الطويلة عبر ملايين السنين، في ظلمات الغيب، يلفها الغموض من كل ناحية، ولا تنقذها أو تكمل لها المسيرة إلا الصدف أو الفروض"[٢]. وقد شهدت فلسفة العلم في القرن الـ٢٠ ظهور مدرسة تربط بين منزلة القوانين العلمية وبين المناهج التي نستخدمها لاكتسابها، وقد بحثوا عن "عناصر أولانية" (أي أفكار مسبقة)، وهو ما نطلق عليه "غيبيات العلم"، تتسلَّل إلى نسق العلم في صورة التعريفات والتصنيفات والمعيار المقبول ضمنًا للحقيقة. بل ذهب بعضهم إلى أنه ليس هناك معرفة بدون "تأويل"، والتأويل يعتمد على هذه "الأفكار الأولانية"[٣] (أي: الأفكار المسبقة). وهي "غيبيات" حتى لو أحجم المتخصصون في فلسفة العلم عن استخدام التسمية.

• هناك من العلماء مَن يعبر عن هذه الحقيقة بقدر أكبر من المصارحة، فمثلًا: يقول الدكتور بروس سابين: "إن العلم والدين كليهما يقومان على الإيمان"[٤]. أما الدكتور

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، تأليف: الإمام أبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري، تحقيق: الدكتور محمد إبراهيم نصر، الدكتور عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٦، الجزء الخامس، ص ٢٥٤.

(٢) روح الإسلام، جمال البنا، الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية، مصر، ١٩٧٢، ص ٢٨.

(٣) فلسفة العلم في القرن العشرين: الأصول، الحصاد، الآفاق المستقبلية، دكتورة يمنى طريف الخولي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ٢٦٤، ديسمبر ٢٠٠٠، ص ٣٠٩.

(٤) حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب، الأستاذ الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل، سلسلة قضايا إسلامية =

تشارلز هارتاونز فيقول: "أصبح الإيمان في العلم شيئًا تلقائيًّا، حتى لم يَعُدْ يراه الناس؛ ففي العلم إيمان ليس قديمًا، وإنما نشأ من قرون عدة، وإذا لم يكن للمرء هذا الإيمان؛ فإنه يلقي نفسه وسط الخرافات التي تقوم على عدم وجود نظام للكون... ولكننا لا نستطيع أن نثبت بأي طريقة أساسية أن الكون منظم ومنطقي، وإنما نزعم ذلك، ونعتبر أن الأمر كذلك، ونجد أن أفعالنا تنطبق على الحقائق، ولكن هذا شيء لا يمكن إثباته، إنه في حقيقة الأمر إيمان"[(١)].

• فيما يتصل بنظرية داروين بالتحديد لا يمكن القول بأنها: "كلمة العلم"، وقد ناقشها البروفيسور جون بولكجنهوم[(٢)] في كتابه: "ما وراء العلم"، تحت عنوان: "أصدفة عمياء أم خالق عظيم؟"، فقال: "إن من نتائج المنهج الديني الذي أنتمي إليه هو الاعتقاد بوجود مغزى للحياة وهدف ينفذ مع سريان التاريخ، ولقد كان زمن نظر فيه للاكتشافات العلمية على أنها تدعم هذا الرأي. فاستخلاص نيوتن مبدأ بسيطًا للجاذبية الكونية من حركات الكواكب في النظام الشمسي جعله ينظر للأمر كتصميم هندسي رائع فقد كتب في ملحق لكتابه "البرينسيبيا": "إن النظام الرائع للشمس والكواكب والمذنبات لا ينتج إلا عن قصد وقدرة لخالق مدبر، يسيطر على كل ما في الوجود ليس كروح للكون، ولكن كمالك لكل شيء"[(٣)].

• الداروينية ليست سوى فرض نظري لا دليل يقطع بصحته؛ فهو نوع من "الغيب"، لكن الفرق بينه وبين الغيب الذي تأتي به الأديان السماوية: أن الثاني من مصدر مقدس ونُقِل عبر وسيط "معصوم"، ولو أن مقتضى "العلم" كان رفض الغيب الذي

= معاصرة، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف، مصر، ١٩٨٩، ص ٥٦.

(١) المصدر السابق ص ٥٧.

(٢) عالم فيزياء شهير متخصص في فيزياء الجسيمات، أستاذ الرياضيات الفيزيقية بجامعة كمبردج (١٩٦٨ - ١٩٧٩) وقد تم ترسيمه أسقفا عام ١٩٨٣. (ما وراء العلم، جون بولكجنهوم، ترجمة: علي يوسف علي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ١٩٩٨، ص ١٤٧).

(٣) ما وراء العلم، جون بولكجنهوم، ترجمة: علي يوسف علي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ١٩٩٨، ص ٧٧.

مصدره الوحي السماوي لمجافاته لشروط "العلمية"؛ لكان على الداروينيين نبذ نظرية داروين للسبب نفسه.

• تستند الرؤى الشاملة (الأديان والأيديولوجيات) إلى "سردية كبرى" تحكي قصة الإنسان والكون (من المنشأ إلى المآل)، ومعظم نتاجات العلوم الإنسانية لا تنفصل عما تثبته وتنفيه هذه "السردية الكبرى"، فمثلًا تقوم السردية "اللادينية" على الفكرة "الغيبية" الرئيسة الآتية: "حلَّ تدريجيًا الرأي القائل بحياة الإنسان البدائي حياة حيوانية ساذَجة محل الرأي القديم المبني على التقاليد اليهودية، وهو أن الرجل الأول والمرأة خُلقا بعقلٍ تامِّ النمو، وأنهما عرفا الكلام والمنطق... ولا تزال هذه العقيدة مسلَّمًا بها من الكثرة الساحقة من الأمريكان وسكان أوربا"[(١)]. و"كان الاعتقاد أن الإنسان وُهِب العقل والإدراك وتميَّز بذلك تميُّزًا واضحًا عن الحيوان[(٢)]. وفضلًا عن المساواة بين "الرأي" و"العقيدة"؛ فإن هذه السردية تتأسس على أن الوحي هو "التوراة" و"الإنجيل" المحرفان، ومن ثم هو أسير التجربة الغربية مع الدين وحدود المعرفة الغربية به.

• هذه السردية تفضل الهرب من فكرة الخلق، حتى لو أحلت محلها فكرة غامضة "غيبية" عن مسار افتراضي قطعه الإنسان من "الغريزية" إلى "العقل". وهذا الموقف الهروبي ثمرة خلل فكري تاريخي تسببت فيه سيطرة المسيحية المحرفة على العقل الغربي، فأوربا "لم تفهم من الدين سوى الكنيسة والإكليروس"[(٣)]، ولم يكن ما قدمه الإكليروس "مشجعًا على الإيمان"، "وقدم الإكليروس لاهوتًا معقدًا ثقيلًا لا يكاد يُفهم... وادعت مسيحية الإكليروس تضادًّا منفرًا وممزقًا ما بين الجسد والروح، وبالمثل فصلت ما بين الدين والدنيا، ورفضت أن تبدي رأيًا في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية

---

(١) الحضارة، جيمس هارفي روبنسون، نقلها إلى العربية: علي إسلام، مطبعة مصر، مصر، دون تاريخ، ص ١٠، ١١.

(٢) الحضارة، جيمس هارفي روبنسون، نقلها إلى العربية: علي إسلام، مطبعة مصر، مصر، دون تاريخ، ص ١٣.

(٣) روح الإسلام، جمال البنا، الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية، مصر، ١٩٧٢، ص ٢٥.

والسياسية. وأهم من هذا أن الإكليروس قدم صورة مهزوزة لله، صورة إله إنساني، "ابن الإنسان" يصلب فداءً لأخطاء البشر، وليس في هذه الصورة ما يغري الناس بالخضوع لأحكامها أو النزول على تعليماتها"[١]. وهذا سبب أن "أوربا تجاهلت المسيحية كقوة مؤثرة في الإصلاح أو مهيمنة على النفوس؛ لأن الإله الإنساني لا بد أن يكون أسير التصور الإنساني فينظر الناس كأنه "إله ديموقراطي دستوري يتعاون معنا على قدم المساواة"، كما يذكر صاحب كتاب: "فشل الوثني الطيب""، و"أي واحد يقرأ المقالات الدينية التي تظهر في عادة في صحف الأحد يَأْلَف تعبيرات مثل: "إن ربي يجب أن..." أو "أنا لا أقبل إلهًا يكون..."""، والحديث عن "المسيحية الليبرالية التي تحتفظ بكليات الدين" وحدها.

• كما يؤكد كتاب غربيون فإن "أعظم الأخطاء التي ارتكبها المجتمع البشري في القرون الأربعة الأخيرة، والنتائج الوخيمة التي ترتبت على هذا الخطأ هي أن الإنسان – وليس الله– وُضِع في صدارة الكون، والحضارة لن يمكنها أن تتخلص من الكوارث التي تلاحقها إلا عندما تصحح هذا الخطأ"[٢].

• في سياق الفكر الغربي، يعد فيلسوف الحضارة ألفرد نورث وايتهد نموذجًا لمعارضي القول بالتطور تفسيرًا لنشأة الحضارة نشأة ومسارًا، وفي نقده لها بصفتها أساسًا لفهم الحضارة، يرى أنها تؤيد "التكيف السلبي مع البيئة"، والنظرية تنطوي على قدرٍ كبير من التعميم؛ بحيث لم تَعُدْ قادرة على تفسير شيء، ويبدو أنها استخدمت قاعدة مريحة قابلة للتطبيق على كل شيء يقع[٣].

• يتأسس موقف وايتهيد الرافض للمنطق التطوري على تأكيده البعد "الغيبي" في

---

(١) روح الإسلام، جمال البنا، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦.

(٣) فلسفة وايتهيد في الحضارة، أ. ه. جونسون، ترجمة الدكتور عبد الرحمن ياغي، المكتبة العصرية، بيروت/ صيدا، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين، نيويورك، ١٩٦٥، ص ٨٣، ٨٤.

الحضارة، متمثلًا بالأساس في "الإله"[١]، وهو يعود ليؤكد الصفات التي اختارها لتحديد المجتمع المتحضر هي "مُثُل الحضارة العليا"، مضيفًا أنها: "تشكل جانبًا من بناء الكون الباقي الذي هيأه الله ليكون في متناول تلك الكائنات الفعلية التي تتقدم لاستخدام هذه الأشياء، وهي قادرة على الانتقال بها من مثل كامنة بالقوة إلى مثل تتحقق بالفعل"[٢].

• "التهيئة" التي يشير إليها وايتهيد قريبة إلى حد بعيد من فكرة "التسخير" التي أشار إليها القرآن، وهذا التسخير الذي منَّ الله به على الإنسان أدى غيابه عن الفكر الغربي لظهور أفكارًا مثل: "الصراع مع الطبيعة"، و"السيطرة على الطبيعة"، و"قهر الطبيعة"، الأمر الذي أدى إلى الاختلال البيئي التاريخي الذي تعيشه البشرية.

• مفهوم التسخير في الإسلام يتضمن إجابة إلهية عن الأسئلة التي طالما حيرت عقول من قرروا استبعاد الوحي في محاولتهم فهم الحضارة، فالتسخير شمل:

١- خلق الكون. ٢- تمهيد الأرض.

٣- توفير أسباب الحياة فيها. ٤- خلق التزاوج قانونًا للتكاثر.

٥- خلق الأنعام وتيسير استئناسها.

• الملحد الذي ينكر وجود الله يحكم على عالم لا يعرفه[٣]، وهي ملاحظة ثاقبة للأب الفاتيكاني رانييرو كانتلاميسا؛ فالكون بوصفه وجودًا كليًّا لم يتحول حتى اليوم إلى موجود "مُدرَك" لا بوسائل الإدراك الحسي ولا العقلي؛ ومن ثَم فإن إطلاق الأحكام الكلية عليه -وبخاصة القول بأنه قديم أو حادث- لا يمكن قبوله تجريبيًّا ولا عقليًّا، ووحده "الوحي" يقدم الإجابة القطعية على سؤاله.

---

(١) المصدر السابق ص ٨٧.

(٢) فلسفة وايتهيد في الحضارة، أ. ه. جونسون، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٦، ١٧٧.

(3) الإخبارية الفاتيكانية.Zenit.org تقرير، ٦ ديسمبر ٢٠١٠، وكالة

*** إشكالية المسبقات (المسلمات والبدهيات):**

منذ تأسيسها عام ١٨٨٠، كانت مجلة العلم (Science) في مركز الاكتشافات العلمية المهمة، وتنشر المقالات التي تُصنَّف باستمرار من بين أكثر المقالات التي يُستشهَد بها في العالم. وفي ديسمبر ٢٠٠٢ نشرت المجلة مقالًا مهمًّا عن عالم الرياضيات الشهير كيرت غودل(*)، ولتقدير أهميته الاستثنائية يكفي أن نشير إلى أوصاف استخدمتها المجلة منها أنه: "عندما أجرت مجلة تايم استطلاعًا للرأي (عام ٢٠٠٠) لتحديد المفكرين الأكثر تأثيرًا في القرن العشرين، كان غودل واحدًا من اثنين فقط من علماء الرياضيات الذين وصلوا إلى قائمة العشرين الأوائل"، و"يمكن القول بأنه الخبير الأول في العالم في المنطق"[(١)].

(*) وُلد كيرت غودل في ٢٨ أبريل ١٩٠٦، فيما كان يُعرف آنذاك بمدينة برون في النمسا (أصبحت الآن في جمهورية التشيك). بكل المقاييس، كان غودل تلميذًا متميزًا وطالبًا متألقًا في جامعة فيينا، وحصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٢٩. بقي غودل في فيينا حتى عام ١٩٤٠، عندما فر من الفظائع النازية ليتولى منصبًا في معهد الدراسات المتقدمة في جامعة برينستون الأمريكية، وبقي فيه حتى وفاته في ١٤ يناير ١٩٧٨. وعندما أجرت مجلة تايم استطلاعًا للرأي (عام ٢٠٠٠) لتحديد المفكرين الأكثر تأثيرًا في القرن ٢٠، كان غودل واحدًا من اثنين فقط من علماء الرياضيات الذين وصلوا إلى قائمة العشرين الأوائل، و"يمكن القول بأنه الخبير الأول في العالم في المنطق". في ١٩٣١ نشر غودل ورقة بحثية تصفها مجلة Science (العلوم) بأنها أرسلت موجات صادمة عبر مجتمع علماء الرياضيات وأجبرتهم على إعادة النظر في تخصصهم. كان عالم الرياضيات كيرت غودل، وأصبحت النتيجة التي أثبتها في ورقته البحثية تُعرف باسم: "نظرية عدم الاكتمال" (نظرية غودل)، ولم تكن النظرية الرئيسة الوحيدة التي أثبتها خلال حياته المهنية الناجحة للغاية.

انظر:

Science، Volume 298، Issue 5600، Dec 2002، ARTICL، EKurt Gödel، Separating Truth from Proof in Mathematics، Keith Devlin.

(1) Science، Volume 298، Issue 5600، Dec 2002، ARTICL، EKurt Gödel، Separating Truth from Proof in Mathematics، Keith Devlin.

في ١٩٣١ نشر غودل ورقة بحثية تصفها مجلة Science (العلوم) بأنها أرسلت موجات صادمة في مجتمع علماء الرياضيات، وأجبرتهم على إعادة النظر في تخصُّصهم، وقد أصبحت النتيجة التي أثبتها في ورقته البحثية تُعرف باسم: "نظرية عدم الاكتمال" (نظرية غودل).

أجبرت نظرية عدم الاكتمال علماء الرياضيات على التساؤل عما يعنيه وصف شيء ما بأنه "صحيح" في الرياضيات، وكان التغيير الناتج عنها في فهمنا للرياضيات مثيرًا تمامًا مثل التغيير في مفهومنا للهندسة الذي أعقب اكتشاف الهندسة غير الإقليدية في القرن ١٩، وكلا الاكتشافين الرئيسين يتضمن "أنظمة بدهية"، ولا يمكن فهم أي منهما فهمًا صحيحًا بدون تقدير ما يعنيه علماء الرياضيات بكلمة "بدهية"، والدور الذي تؤديه البدهيات في الرياضيات. وباختصار، تقول نظرية غودل إنه: "في أي نظام رياضي بدهي غني بما يكفي لإجراء العمليات الحسابية الأولية، ستكون هناك بعض العبارات الصحيحة لكن لا يمكن إثباتها (من البدهيات)".

وفي الوقت الذي أثبت فيه غودل هذه النظرية، كان من المعتقد -على نطاق واسع- أنه ببذل الجهد الكافي، سيتمكن علماء الرياضيات في النهاية من صياغة بدهيات لدعم الرياضيات بأكملها، وقد تعارضت نظرية عدم الاكتمال مع هذا التوقع، وعدَّها كثيرون إشارة ضمنية إلى "وجود حد للمعرفة الرياضية التي قد نكتسبها"، و"كان التغيير في مفهومنا للحقيقة الرياضية الذي أحدثته نظرية غودل كاملًا". ففي القرن ١٩، أدرك علماء الرياضيات أن "العديد من المفاهيم التي تبدو بدهية كانت إشكالية". وممَّا يُثير الغرابة: أنَّ المنطقي كورت غودل عندما أرسل لأحد أصدقائه مبرهناته عن عدم اكتمال الأنساق الرياضية استدرك قائلًا: "مع أنِّي لست مؤمنًا"؛ فقد كان يعي جيدًا أنَّ معادلاته تُؤدِّي لإثبات: "مفهوم التسليم"، أو الإيمان عند التأمل فيها فلسفيًّا[1].

(1) Science، Volume 298، Issue 5600، Dec 2002، ARTICL، EKurt Gödel، Separating Truth from Proof in Mathematics، Keith Devlin.

وفي الفضاء المعرفي الواسع الذي يتجاوز حدود الرياضيات، كانت "البدهيات" (والمسلَّمات) دليلًا قاطعًا على "نسبية" ما هو عقلي وما هو حسي، ما يعني: أن "الغيب" (بوصفه مما لا يقبل البرهنة) مهيمنًا على العقل منذ البداية، أما التسليم بمقدمات لا يتوقَّف الإيمان بها على إخضاعها للتمحيص العقلي "مسلَّمات"، فهو -كما قال الفيلسوف البريطاني المعروف برتراند راسل- أمر لا مفر منه، وهو يعبر عن ذلك بقوله: "ليس من الممكن أن نتنقل خطوة واحدة إذا بدأنا من الشك الديكارتي"، "وعلينا أن نبدأ من تسليم عريض بكل ما يبدو أنه معرفة أيًّا كان"[1].

وفي مسار تطور تاريخ الرياضيات و"تصورنا" لها، "كانت الرياضيات نموذج العلم العقلاني؛ لأنَّ الكون والفساد لا يدخلان على الكائنات الرياضية"؛ ولذلك أسَّست "المدرسة البولندية": "منهج الأكسيوميتك" الذي يبني أنساقه على (مبدأي: عدم التناقض، والتمام) غيرَ أنَّ هذه الآمال ضاعت هباء منثورًا عندما نشر كورت غودل (مستخدمًا الشروط نفسها) منظومته، أو (مبرهنة عدم الاكتمال) و"انتهى في سعيه إلى إثبات استحالة البرهنة على بعض القضايا". وخلاصة ما توصل إليه غودل أن من الصعب الفرار من "الميتافيزيقا"، ما يعني أننا "أمام قضية تقر بعدم قابليتها للبرهنة"، ومن ثَم يستحيل تقديم برهان يؤكد نسقية نظام ما من داخله، أي؟ أن "البناء الرياضي" برمته يقوم على: "التسليم"[2].

الإلحاد والوعي:

هنا -يقول الباحث سلطان البنوي- نستطيع التأمل جزئيًّا في سؤال: "هل

---

(1) حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب، الشيخ الدكتور يحي هاشم حسن فرغل، سلسلة قضايا إسلامية معاصرة، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف، مصر، ١٩٨٩، ص ٥٦ – ٥٧.

(٢) سلطان البنوي، العقلُ، اللغةُ، الإلحادُ: هل للإلحادِ إمكانيةُ بناءِ وعيٍ؟، موقع مركز نماء للدراسات، ٢ يوليو ٢٠١٦، الرابط:

http://www.nama-center.com/ActivitieDatials.aspx?Id=30595

للإلحاد إمكان بناء وعي؟" فـ: بعد أن ساد الحديث مدة عقود عن وجود عقلانية واحدة مجردة، أصبح الحديث عن العقلانيات مألوفًا في الأوساط الفكرية"، ثم إنَّ المقدس "عنصر من عناصر بنية الوعي، وليس مرحلة من مراحل تاريخ الوعي"؛ ما يعني أنَّ المقدس الذي ينفيه الملحد، ولا يقع ضمن حدود العقل عند المؤمن يجعل اللغة أكثرَ إمكانًا لتحمل معانٍ ليس لها دلالة مادية؛ لأننا إذا حصرنا اللغة في الإشارة المادية فقط انتقلنا من العقلانيات المتعددة إلى العقلانية الصورية التي تَبيَّن لنا أنَّها عقيمة في ما تدعي الوصول إليه(١).

والنظر لمفهوم العقل جوهرًا يستلزم أن يضم مبدئيًّا الحقائقَ الصورية كافة، وهذا أمرٌ ثبت أنه خطأ؛ ولذلك، انتقل الفكر الفلسفي لتقرير نسبية الإدراك وتفاوت الملكات والقدرات العقلية، وهو ما يتفق مع كون الحقائق خارجة عن الوجود الذهني؛ إذ لو كانت ذهنية لوجب وجودها في العقول والمجتمعات كافة؛ إذ "فهمنا لمعنى الحقيقة يستلزم الإقرار بها، وإلَّا لم يكن لمعناها فائدة"، فالحقائق تكتسب معناها من "ضرورة التسليم بها" غير أنَّ دلالة المعنى خارجية وليس ذهنية. وهكذا: فإنَّ تفسير "نسبية الإدراك" بنسبية الحقيقة عند الملحد غير سليم؛ لأنَّ النسبية متعلقة بالإدراك وتفاوته، وليست متعلقة بالحقائق وضرورتها. وتطبيق ما سبق على الإلحاد يعني أن "نفي الملحد لربوبية إلهٍ حقيقي في الخارج ليست ذات صلة بما هو في الخارج حقيقة"(٢).

و"السمة التي لا تنفكُّ عن المعرفة أنَّها إنسانية"؛ وهي لذلك، مجموعة خبرات وتجارب تُنظَّمها وفق أنساق كثيرة، وهذا وجه يُخالف المذهب العقلاني الصوري الذي يتبنَّى: نزعة تعالٍ، و"يحصر الممارسات العقلانية في قالب واحد مغلق، وهو ما يشترك ضمنيًّا مع الفكر الإلحادي في مبدئه الأساسي الذي يزعم نَفْيَ الإله"، ما يلزم منه "تأليه

(١) سلطان البنوي، العقلُ، اللغةُ، الإلحادُ: هل للإلحادِ إمكانيةُ بناءِ وعيٍ؟، مصدر سبق ذكره.

(٢) سلطان البنوي، العقلُ، اللغةُ، الإلحادُ: هل للإلحادِ إمكانيةُ بناءِ وعيٍ؟، مصدر سبق ذكره.

ممارسة عقلانية معينة"؛ والنتيجة تصوير "شكل معين للعقل في الفكر الإلحادي، وتعيين ممارسة عقلانية دون غيرها" مع إضفاء مفهوم الألوهية عليها؛ لأنَّ التأليه يلزم منه التوحيد، وقد يظنُّ معترضٌ أنَّ مجرد السلب -بنفي الإله- يُؤدِّي إلى تعدد العقلانيات وانفتاحها. ولما كانت "الحقيقة خارجة عن الوجود الذهني؛ فإنَّ الإقرار بها من عدمه لا يؤثر فيها"، و"نفي الملحد لربوبية إلهٍ حقيقي في الخارج ليست ذاتَ صلة بما هو في الخارج حقيقة؛ لأنَّ اختلاط الوجود الذهني بالوجود الخارجي يُؤدِّي لافتراض ما يظنُّه المدعي أمرًا حقيقيًّا، أو مؤثرًا، وليس بذلك عند التحقيق". وفي المحصلة فإن "بناء نسق إلحادي يشترك بنيويًّا مع محاولات بناء عقل صوري بحت".

والزعم بأنَّ الإلحاد يُؤدِّي إلى التعدد وانفتاح العقلانيات غير صحيح؛ لأنَّ سَبْك مفهوم العقل في قالب مغلق يتعارض منطقيًّا مع القائلين بالنظرية التوليدية التي تتبنَّى التطورية الداروينية، وإذا كان العلم يشترك مع الدين في تكوين معتقدات فردية وجماعية؛ فإنَّ دراسة تكوين المعتقدات أحدُ مداخل فهم الفعل العقلاني[1].

(١) سلطان الب سلطان البنوي، العقلُ، اللغةُ، الإلحادُ: هل للإلحادِ إمكانيةُ بناءِ وعيٍ؟، مصدر سبق ذكره.

الفصل الثاني: من ميلاد "الحداثة الأوربية" والإلحاد الحديث إلى اليوم

من منظور معرفي يرصد الدكتور فهمي جدعان الأكاديمي المعروف أن "الحداثة" التي اقترنت بـ"الأنوار" (أي التنوير) قلبت حدود العلاقة بين "المقدس" و"الحرية" على نحو بيِّن[(١)]؛ فهي في حقيقة الأمر أحدثت وقائعَ جديدة أقصت "الديني" ونصبت العقل إمامًا وحاكمًا، وأقرت حقوقًا للإنسان، وجعلت حق الحرية في الاعتقاد والتعبير حقًّا "مقدسًا". وفي مواطن الحداثة، -أي: في الغرب- استخدم "الفكر الحر" هذا الحق استخدامًا مطلقًا، وفي مجراه المرتبط بسلطة "الوحي" وبمؤسسة "الكنيسة"، قصد هذا الفكر -مع فولتير[(٢)]- إلى القضاء على "الدجال"، ونعت المقدس الديني وأهله بأقذع النعوت وأعنف الأقوال، وأذيعت المصنفات التي "تؤنسن" المسيح، أو تضعه في موضع الشك أو الازدراء أو السخرية، وحفلت الأدبيات الغربية بما لا عدَّ له ولا حصر من الكتابات المضادة للألوهية وللدين وللمقدس[(٣)].

---

(١) دكتور فهمي جدعان، المقدس والحرية، وأبحاث ومقالات أخرى من أطياف الحداثة ومقاصد التحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، ص ١٩.

(٢) فولتير الاسم المستعار لفرانسوا ماري آروِه (١٦٩٤ – ١٧٧٨)، أديب وفيلسوف فرنسي. حَصل ثقافة أدبية متينة ثم اتّجه إلى دراسة الحقوق، ولاحقًا انصرف إلى حياة اجتماعية ماجنة، نَظم أشعارًا ناقدة طالت حتى الوصي على عرش فرنسا ما قاده إلى السجن مرتين. بعد خروجه الأول، اتخذ لنفسه لقب: "فولتير"، ومرة أخرى، أثار سخط السلطات، فاغترب إلى إنكلترا ونهل من الثقافة والفلسفة الإنكليزية، فتحول الشاعر إلى فيلسوف داعية إلى التجديد والحرية. بفضل الثروة التي ورثها وكسبها بتقربه من ملوك فرنسا وإنكلترا وبروسيا وبولونيا، عاش حياة مريحة واتسع نطاق مراسلاته مع عظام عصر التنوير من رجال الثقافة والحكم، على امتداد أوربا، وكتب ونشر ما يزيد على ١٦٠ مؤلفًا، وطالت انتقاداته الأعراف والمؤسسات والعقائد، وناهض العقائد، ورفض الطقوس الدينية، ودعا إلى مبدأ إلهي يثبته العقل، واعتنق "الربوبية"، وقد أفادت الثورة الفرنسية منه.

راجع:

(فولتير، أنطوان زينون، الموسوعة العربية العالمية، المجلد الرابع عشر، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، السعودية، الطبعة الأولى، ١٩٩٦، ص ٨٠٣).

(٣) دكتور فهمي جدعان، المقدس والحرية، وأبحاث ومقالات أخرى من أطياف الحداثة ومقاصد =

وهكذا، فإن "الحداثة الأوربية" بوصفها مرجعية فلسفية للإلحاد، نشأت مضادة للإيمان، وسعت إلى السيطرة على الإنسان بعد تفريغه من الإيمان، فالخواء سمة الإلحاد، و"الحداثة الأوربية" جعلت البشر يقفون ضد خالقهم، ما أدى إلى تدمير حقيقي للإنسان، ومنذ ستينيات القرن الماضي وكثير من الملحدين ينتظرون انتهاء الدين وموت الإله، إلا أن المُشَاهَد أن الأصوليات انبعثت من جديد في جميع الأديان، تعلن أن الإله موجود، وأن لكلمته السطوة على حياة الناس(١).

ومن المهم -في هذا السياق- التنبيه على حقيقة أن بعض الأفكار التي يجري استخدامها الآن لترويج النظر المادية الإلحادية (أو اللادينية) للإنسان والكون، جرى "تأويلها" لتحقق ها الهدف. والمادية من جهة التاريخ، ترجع إلى بعض فلاسفة الإغريق في حقبة ما قبل سقراط ابن القرن ٦ ق. م. هذا معناه أن الفكرة ليست جديدة، وليست من معطيات العلم الحديث كما يتصور بعض. ونظريات كوبرنيقوس وكبلر ورؤاهم حول الفلك، صادمت نظرية بطليموس المعتمَدة من الكنيسة، ولم تصادم الدين في الحقيقة. ثم مرت المادية بمراحل مختلفة، وحاولت أن تكسب من العلوم حليفًا لها في معركتها ضد الدين والمثالية والميتافيزيقيا، فلجأت لنظريات علماء الفيزياء والأحياء، واستخدمت نظرياتهم لصالحها رغمًا عنهم. يقول والتر ستيس المتوفى في عام ١٩٦٧ في كتابه الممتع: "الدين والعلم الحديث": "لو علم إسحاق نيوتن بما سيحدث للعالم بعد قوله: "إن الكون يشبه الآلة" لَأصيب بصدمة كبيرة؛ فالرجل كان مسيحيًّا مؤمنًا ولم يكن ملحدًا على الإطلاق". كل الأديان تشير لأهمية الأخلاق في حياة الإنسان، وأن هناك نظامًا أخلاقيًّا موضوعيًا يجب على البشر اتباعه والالتزام به، أما المادية فجعلت القيم

= التحديث، ص ٢١، بتصرف يسير.

(١) مصطفى عاشور، نرجسية الإلحاد المعاصر، ٢٤ مايو ٢٠١٧، موقع إسلام أون لاين، الرابط:
https://islamonline.net/21502

الأخلاقية ذاتية ونسبية[١].

ويُقصَد بالحداثة الفكرية حزمة "الخطابات وأساليب التفكير التي انبثقت في عصر النهضة الأوربية (في القرن ١٦ تحديدًا) في أوربا الغربية نقيضًا لسابقتها التي كانت سائدة في العصور الوسطى، وترافقت الحداثة الفكرية مع "تحديث المجتمع الأوربي وانتقاله من مجتمع زراعي إقطاعي بدائي إلى مجتمع صناعي رأسمالي تِقْني متطور". وتصاعد نفوذ الحداثة الفكرية أوربيًّا ثم عالميًّا، وتطورت واتضحت معالمها "حتى وصلت إلى أوجِها في "عقيدة التنوير""، و"لئن برزت هذه العقيدة الجديدة في شكلها الصريح الواعي في فرنسا القرن ١٨، فإنها وصلت إلى أوجها في "المادية الثورية الألمانية" في منتصف القرن ١٩، وبالتحديد في ماركس وإنغلز الألمانيين"[٢].

ونمت "عقيدة التنوير" في القرون ١٧ و١٨ و١٩ مع نمو الثورة العلمية وتفشيها في المجتمع الأوربي ومع نمو البرجوازية الأوربية الإنتاجية، حاملةً مشروع الحداثة، حتى وصلت إلى أوجِها البرجوازي في الماديين الفرنسيين: وفولتير وروسو وكانط وهيغل، ووصلت إلى أوجها العمالي في ماركس وإنغلز. ومن السمات الرئيسة لـ"عقيدة التنوير":

- المادية، أي: اعتبار الطبيعة كيانًا ماديًّا مستقلًّا وقائمًا في ذاته، تحكمه مبادئ وقوانين ونظُم قابلة لِأَنْ تُعرَف، واعتبار الإنسان جزءًا من الطبيعة.
- الروح النقدي المتواصل، أي: رفض سلطة المألوف وسلطة السلف وسلطة الغيب، ونزع هالة القدسية عن الأشياء والعلاقات، والالتزام بالعقل العلمي سلطة رئيسة للأحكام.
- الثورية، أي: إدراك تاريخية الطبيعة والمجتمع البشري، وإدراك الذات المدركة

(١) خالد الغنامي، بؤس النظرة المادية للحياة، جريدة الشرق، السعودية، عدد رقم ٩٠، ص ١٦، ٣ مارس ٢٠١٢.

(٢) دكتور هشام غصيب، الخطاب الفكري العربي وتحديات الحداثة، مقال، مجلة المعرفة، سوريا، رقم العدد: ٦٦١، أكتوبر ٢٠١٨، ص ص ٢٦٤، ٢٧٠.

بصفتها قوة اجتماعية ثورية.

- اللاغيبية التي تصل إلى أوجها في الإلحاد؛ إذ سعت "عقيدة التنوير" إلى إقصاء المفهومات الغيبية من المعرفة والعلم أولًا، ثم من الأخلاق والتاريخ.
- اعتبار المعرفة العلمية قيمة قائمة في ذاتها ومطلقة الاستقلالية؛ فهي لا تقبل أيَّ سلطة أو قيد يُفرض عليها من خارجها. فقيودها -إن وجدت- تنبع من داخلها[1].

إلحاد الدولة من الفرنكفونية إلى الإلحاد الشيوعي:

تاريخيًّا قُدِّمَت العلمانية الفرنسية للعالم العربي -وفي مرحلة لاحقة فُرِضَت فرضًا- بوصفها انتصارًا للعقل (هكذا بدون التصريح بحقيقة موقف هذه العقلانية من الإيمان الديني)، وكانت بعض مقولاتها -في تاريخها المبكر- تستثني الملحدين من دعوات التسامح والتعددية. وعلى سبيل المثال، دافع رينيه ديكارت -وباستماتة قوية- عن إعمال العقل في مختلف مناحي الحياة، لكن هذا المبدأ توقف عند اصطدامه بـ"الكفار والملحدين"، الذين عدَّهم في كتابه "تأملات حول الفلسفة الأولى" متغطرسين أكثرَ من كونهم متعلمين. والموقف نفسه نجده لدى جون لوك، مؤسس الفكر الليبرالي الذي يقوم على الديمقراطية والحرية الفردية والمساواة الاجتماعية، وصاحب: "رسالة حول التسامح" الذي ذهب إلى أنه "لا يمكن التسامح على الإطلاق مع الملحدين"[2].

وبحسب -باحثين كثيرين بينهم الفيلسوفة الفرنسية سيسيل لابورد، والمؤرخ الفرنسي جون بوبير- فإن العلمانية الفرنسية فهمت الدينَ على الطريقة المسيحية، وبخاصة على الطريقة الإصلاحية البروتستانتية، وبالتحديد اختزاله في الاعتقاد الفردي

---

(١) دكتور هشام غصيب، الخطاب الفكري العربي وتحديات الحداثة، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٦٤، ٢٧٠.

(٢) محمد طيفوري، في جغرافيا التنوير.. بعيدًا عن السردية الأوربية، مجلة قنطرة – ألمانيا، ١٣ إبريل ٢٠٢٤، الرابط:

https://qantara.de/node/43774

وحرية الضمير؛ ومن ثَمَّ فمكانه في الفضاءات الخاصة كالبيت والكنيسة، وهكذا تصبح الطقوس في المجال العام مجرَّد استعراضات دعائية للدين، وتشهد فرنسا منذ عدة عقود ما يشبه الانقلاب "على الحرية الفردية ليحل محلها مفهوم جديد" يسميه الباحث السعودي أحمد الفاضل: "لائكتاتورية". ويشير الفاضل إلى أن العلمانية عمليًّا، تعني: أن "المعارف المطلوبة لتنظيم شؤون المجتمع السياسية والاقتصادية والقانونية ليست بالضرورة نابعة من الدين"، وتعدُّ فرنسا أن "اللائكية" التتويج النهائي لمسار العلمنة. وهذه القاعدة الخاصة بفرنسا، تجعل "العلمانية حركة إقصائية للدين"، و"لذا، وبطريقة تلقائية ستتحوَّل العلمانية الفرنسية بهذا الشكل إلى معول لهدم الحرِّيات". والدولة القوميَّة تجعل الولاء "أولًا للدولة ثم للمعتقد أو الفكر"، و"يمكن وصف ذلك بهجرة المقدس من المعبد إلى الدولة، فتتحوَّل اللائكية بحدِّيتها اليوم الى "لائكتاتورية" أي: دكتاتورية العلمانية، وتصبح القومية فيها دينًا جديدًا تذوب فيه كل مكوِّنات المجتمع العقائدية". وكبار الفلاسفة والمفكرين المعاصرين ينتقدون هذا التوجه، وعلى رأسهم الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس؛ إذ يدعو إلى الاحترام المتبادل والابتعاد عن الإقصاء والوصول إلى مجتمع "ما بعد العلمانية" القائم على تنازلات مُتَبادَلة[1].

وهناك مفاهيم كونية في "العلمانية"، كونها "تعني نفي التسلُّط وحرية الضمير والمساواة في الحقوق والواجبات" وتأمين الحريات الفردية في المجالين الخاص والعام، وفي إطار هذا الفهم تحوَّل بعض دعاة اليسار الفرنسي العلماني إلى "فقهاء" ليثبتوا أن الحجاب ليس من الإسلام، أو أن الحجاب رمز لـ"عبودية المرأة"، مسقطين معنًى ثقافيًّا منبثقًا من "الثقافة الأوربية" على مجتمعات أخرى، وهذا ما نسمِّيه بـ"المركزية الإثنية"، منتهكين بذلك أبسط الحريات: أن يحدد الفرد معنى سلوكه الاجتماعي، ومنع الحجاب

(١) أحمد الفاضل، فرنسا وديكتاتورية العلمانية، مقال، الموقع الإخباري لقناة العربية على الانترنت (العربية نت)، ٢٣ نوفمبر ٢٠٢٠:

https://cutt.us/eV6dR

في المدارس والمؤسسات العامة انتهاك صريح لحرية ممارسة الأديان، وبرأيي أن المسوغ (شبه الوحيد) اشمئزاز الفرنسيين ذوي نزعة "الثقافة الواحدة" من الحجاب. وقد أدانت الفيلسوفة الأمريكية مارثا نوسباوم في كتابها: "الاختباء من الإنسانية: الاشمئزاز، والخزي، والقانون" (Hiding from humanity disgust، shame، and the law) أي: "التقنين" بناءً على الاشمئزاز من تصرفات الآخرين، وهذا حكم عام؛ فيجب ألَّا تُبنى الأحكام الأخلاقية أو القانونية لمنع أفعال ما على الاشمئزاز.

وترى "العلمانية الفرنسية" أن للعلمانية قيمًا كونية ثابتة بحدِّ ذاتها بغض النظر عن مآلات ذلك على المجتمع، بدلًا من اعتبارها وسيلةً لتحقيق قيم الليبرالية السياسية في ظل الدولة الديمقراطية من حرية ومساواة وتعدُّدية. وعندما تدخل المفاهيم الليبرالية للعدل ويدخل مفهوم الخير في تصارع، "يلجأ المجتمع إلى الجدل في المجال العام مستخدمًا العقل العمومي، أي: تبريرات أخلاقية مستمدَّة من الثقافة والتراث ومتأثرة بالعولمة؛ بحيث يصعب تمييز ما هو بالفعل من بقايا التعاليم الدينية أو من المصادر القيمية الأخرى"، و"لا تلجأ العلمانية الجديدة الفرنسية للتعبير عن كونها قيمًا كونية فقط، ولكن أيضًا يجري إصدار تشريعات وقوانين صارمة ضد أديان الأقليات، فبدلًا من أن يكون هناك جدل في المجال العام مؤطَّر بما هو مشترك في الثقافة الفرنسية، يصبح الموضوع هو قوانين تُسَنُّ ضدَّ الممارسات الدينية للأقلية". و"فصل السياسة عن الدين ليس له معنى إلَّا المعنى التقني لكلمة السياسة، فتُسيَّس الدين والدور الأخلاقي الذي يؤديه الدين سلبًا أم إيجابًا أصبح واضحًا في كثير من الدول العلمانية، وتأثير الكنيسة في التصويت أصبح أمرًا سائدًا في كثير من الدول الديمقراطية، كما تؤثر في اليسار أو اليمين". وتركز العلمانية الإقصائية الفرنسية بكل أسفٍ على السياسات السلبية. لقد تحوَّلت هذه العلمانية إلى عقيدة شمولية أخرى، تتصرَّف كما لو أنها تُلم بكل قضايا الإنسان، ما يحوِّلها إلى مرجعية مُلزِمة بأوامر تكاد تتصف بالإطلاقية نفسها التي تتميز بها

الأوامر العقدية الدينية[١].

ومؤخرًا، أثارت العلمانية الفرنسية جدالات عالمية كثيرة، وبخاصة في أمريكا، فقد أثارت أصواتٌ مخاوفَ من نموذج اللائكية الفرنسية، ووصفه البعض بـ"اللاليبرالي". وعقد آخرون مقارنة مع نموذج الفصل الأمريكي بين الكنيسة والدولة لم تأت نتيجتها في صالح النموذج الفرنسي (اللائكي). واللائكية نفسها فكرة نشأت في عصر التنوير، وفي فرنسا، تأسست فكرة الفصل بين الدين والدولة على غاية تحرير الدولة من سيطرة الكنيسة الكاثوليكية التي أدى نفوذها إلى اضطهاد الأقليات الدينية، وبينما تركز العلمانية الأمريكية على حرية الفرد الدينية تركز الفرنسية على الحرية الجمعية، ويتزايد باطراد عدد الفرنسيين الذين لا يعتنقون أيَّ دين، و٣٠٪ منهم يُعِدُّون أنفسهم ملاحدة مقابل ٤٪ فقط من الأمريكيين[٢].

عودة المسيحية بعد الاتحاد السوفيتي:

انهار الاتحاد السوفيتي "إمبراطورية الإلحاد" في مطلع تسعينيات القرن الماضي، وعادت المسيحية بقوة في نطاق يمتد من روسيا إلى قلب شرق أوربا. وفي ٢٣ يوليو ٢٠٠٧ وجه علماء روس -بينهم حائزان على جائزة نوبل للفيزياء فيتالي غينزبورغ وجوريس ألفيوروف- رسالة مفتوحة إلى الرئيس الروسي فلاديمير بوتين حول "تغلغل الكنيسة الروسية الواسع في جميع مجالات الحياة الاجتماعية". وفي الرسالة أورد العلماء

(١) هل العلمانية الفرنسية قابلة للتصدير؟، موقع مركز نهوض للدراسات والبحوث، أ. د. ساري حنفي، ٣ مايو ٢٠٢٣، الرابط:

https://n9.cl/qlvaj

(٢) العلمانية الفرنسية "غير الليبرالية"، نيكولا كادين (السكرتير العام لمنظمة مراقبة اللائكية، وهي مؤسسة غير حزبية تستشيرها الحكومة الفرنسية وتدرب عناصر تابعة للدولة أو غير تابعة لها على شؤون الحرية الدينية. نشر المقال في فورين بوليسي بتاريخ ٧ أبريل٢٠٢١، ترجمة: أحمد شافعي، جريدة عمان، سلطنة عمان، ١١ أبريل ٢٠٢١، الرابط:

https://n9.cl/yarpt

أمثلة تؤكِّد أنَّ الكنيسة "تغلغلت في القوَّات المسلحة"، منتقدين تغطية الإعلام المتحمسة للشعائر الدينية التي يشارك فيها رجال الدولة، بينما الكنيسة تتغلغل تقريبًا في جميع مؤسسات السلطة، ما يتعارض مع الطابع العلماني للدولة ومبدأ فصل الكنيسة عن السلطة الذي ينص عليه الدستور الروسي، وقد ردت الكنيسة على أعلى مستوياتها على الرسالة، فأكَّد بطريرك موسكو وسائر روسيا ألكسي الثاني أنَّ الكنيسة تحترم الدستور الروسي، الذي يكفل الطابع العلماني للدولة وأن "الكنيسة لا تتدخَّل في حياة الدولة، والدولة لا تتدخل في شؤون الكنيسة"، لكن الكنيسة "لا تستطيع الانزواء عن الشعب والمجتمع". ولفت البطريرك، في سجاله مع ممثلي العلوم الدنيوية إلى أن المجتمع الروسي يصبح أكثر كنسيَّة، ويودِّع إلى غير رجعة الإلحاد الإلزامي الغابر؛ ولذا فإن الرسالة المذكورة ليست سوى "صدى للدعاية الإلحادية". كما نوَّه بأنَّ تعليم اللاهوت في الجامعات تقليد عادي في جميع أنحاء العالم، وأن تدريس أصول الثقافة الأرثوذكسية في المدارس ليس تطاولًا من الكنيسة على المدرسة؛ لأنَّ أصول الثقافة الأرثوذكسية ليست الشريعة المسيحية، وليست مادة لاهوتية بل ثقافية. وقد أكد نائب رئيس قسم العلاقات الخارجية الكنسية في البطريركية فسيفولود تشابلين أنَّه "لا يجوز حصر الكنيسة في إطار حياة الأبرشية، ذلك ما لم تستطعه حتى السلطة السوفييتية"[1].

وبينما تُباع الكنائس في أوربا، وتُهدم وتُحوَّل إلى مساجد وملاهٍ ليلية، تزدهر الكنيسة في روسيا! في ٢٨ سنة، بُنيت ٢٨،٠٠٠ كنيسة جديدة أي: ١٠٠٠ كنيسة في العام الواحد و٣ كنائس كل يوم!

وقد تحدَّث المتروبوليت هيلاريون الذي يشغل منصب رئيس قسم العلاقات

---

(١) حبيب فوعاني، الكنيسة الأرثوذكسية الروسية تنتفض ضد "الدعاية الإلحادية"، جريدة الأخبار اللبنانية، العدد ٢٩٨ الأربعاء ٨ أغسطس ٢٠٠٧، بتصرف واختصار.

الرابط:

http://www.al-akhbar.com/node/138527

الخارجيَّة للكنيسة الروسيَّة عن الإيمان في البلاد وتاريخه وانتعاشه في الثلاثين سنة الأخيرة فقال: إن "العصر الذي نسمِّيه: "معمودية روسيا الثاني" ابتدأ في كنيستنا عام ١٩٨٨؟ وبدأت المعمودية الجماعية لشعبنا في روسيا في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات"، وأضاف: "لدينا اليوم ٣٥،٠٠٠ كنيسة. هذا يعني أننا فتحنا ٢٩،٠٠٠ كنيسة في ٢٨ عامًا أي: أكثر من ١٠٠٠ كنيسة في السنة، أو ٣ كنائس يوميًّا... في السابق كان لدينا ثلاثة معاهد لاهوتية، والآن هناك أكثر من ٥٠ معهدًا"، و"لم يشهد التاريخ الروسي مثل هذا النمو في الإيمان كالذي نراه في الثماني وعشرين سنة الماضية"، "بل أكثر من ذلك، لا أعرف سابقة أخرى كهذه في أي مكان على امتداد البشرية"[١].

وفي ١ يونيو ٢٠١٢ تحدث رئيس أساقفة كنيسة الروم الكاثوليكيين في أوكرانيا عن إعادة بناء الكنيسة في أوكرانيا، وروى رئيس الأساقفة عن ماضيه فهو ترعرع في مجتمع ملحد تمامًا علَّمه أنه لا وجود لله، أمَّا أسرته فأدت دورًا مختلفًا في حياته، وهي التي نقلت له الدين المسيحي، واستطاع في حقبة اضطهاد الاتِّحاد السوفييتي وفي حالات محددة جدًّا أن يُسهمَ في مظاهرات الكنيسة، وقد أخفى أمر دراسة الكهنوت عن والديه؛ فهذا كان سرَّه في سنِّ المراهقة؛ لأنَّه في ذلك الوقت إن اكتشفت السلطات أمره لَكان والداه قد خسرا عملهما، وأُرسلَ هو إلى المنفى. عرَّض شيفشوك حياته للخطر، وذكر أنَّ الكهنة الذين سُجنوا في تلك الحقبة، وكانوا يقيمون القداس في السجون في ظروف صعبة جدًّا[٢].

---

(١) روسيا الملحدة سابقًا تبني ٢٨ ألف كنيسة خلال السنوات ال ٢٨ الماضية إحدى بشائر انتصار قلب مريم الطاهر، ٢٩ ديسمبر ٢٠١٦، موقع الحركة المريمية في الأراضي المقدسة، Nasra Rohana ، الرابط: http://marianmovement.org/سابقًا-تبني-٢٨-ألف-كنيسة-خلال-السنوات-ال-٢٨/

(٢) أوكرانيا: والدة الله غلبت الإمبراطورية السوفييتية الملحدة، ١ يونيو ٢٠١٢، بياتريس طعمة، Zenit.org، روما، ١ يونيو ٢٠١٢، الرابط: https://ar.zenit.org/articles/أوكرانيا-والدة-الله-غلبت-الإمبراطوري/

الفصل الثالث: المشهد العالمي الراهن للإلحاد

في عام ٢٠٠٥ أعلنت جماعات إنسانية وملحدة حول العالم أنها تتطلع إلى تعزيز مكانتها لمواجهة ما تعدُّه: "التعصب الديني" وجهود من جانب بعض الزعماء الغربيين لتكريس الدين بصفته حجر الزاوية في الحياة الوطنية. وتحت ضغوط ما أسموه: "تزايد التشدد الإسلامي وارتفاع تأثير الفاتيكان في دول الاتحاد الأوربي وإعادة انتخاب مسيحي أعاد اكتشاف قناعاته في البيت الأبيض ترى هذه الجماعات أنه يتعين عليها المقاومة لضمان بقاء الأفكار العلمانية وانتشارها. "الاتحاد الإنساني والأخلاقي الدولي" (سويسرا) الذي يضم جماعات تمثل ملايين الأعضاء أعلن ضرورة رفع الصوت في مواجهة "هجوم الأديان العنيف على القيم الإنسانية"، وأن نعمل جاهدين لمكافحة "جور الدين على السياسة العامة وعلى حقوق غير المؤمنين في كل مكان". وبعد انتخاب جورج بوش الابن (اليميني المحافظ) خشي الإنسانيون الأمريكيون من تنامي تأثير المتشددين المسيحيين العازمين على الحفاظ على أن يؤدي "الكتاب المقدس" دورًا محوريًّا في الحياة العامة والسياسة الخارجية. ودعم فوز بوش أنصار نظرية (التصميم الذكي) المستندة في جوهرها إلى الاعتقاد بالوجود الإلهي وراء ما نرى من حولنا، ونُحس به من تصميم بديع لِما في الكون، وظهرت الحركة (التصميم الذكي) من بين صفوف المؤمنين بنظرية الخلق من الأمريكيين. وفي كثير من الولايات الأمريكية يضمن المتشددون في مجالس إدارات المدارس أن تكون نظرية الخلق -التي كانت تدرس على نطاق واسع حتى أواخر الستينيات- موجودة بصورة من الصور، ويطالب أنصار نظرية (التصميم الذكي) الآن أن تدرَّس نظرياتهم إلى جانب نظرية التطور[١].

من أوضح ما يسم المشهد العالمي الراهن للإلحاد تراكم الكثير من أدبيات التنظير للإلحاد -وأدبيات الرد عليه- وتتضمن اجتهادات للتفرقة بين أشكال يُفترَض أنها

---

(١) لمواجهة التعصب الديني، جماعات ملحدة تسعى لتكريس مكانتها الدولية، تقرير، جريدة اليوم، السعودية، عدد رقم: ١١٥٢٦، ٤ يناير ٢٠٠٥.

مختلفة من الإلحاد، ونكتفي ببعض الأمثلة:

- في يناير ٢٠١٦ نشر مركز بيو للأبحاث الإحصائية تقريرًا خاصًّا بالإلحاد والملحدين في الولايات المتحدة الأمريكية، كان من نتائجها أن:
  - ٦٨٪ من الملحدين رجال يبلغ متوسط أعمارهم ٣٨ عامًا.
  - يميل الملحدون الأمريكيون إلى الحزب الديمقراطي بنسبة ٦٩٪ وإلى الليبرالية السياسية عمومًا بنسبة ٥٦٪.
  - يدافع ٩٢٪ من الملحدين عن زواج المثليين وعن الإجهاض القانوني (٨٧٪).
  - ٩ من كل ١٠ ملحدين يعتقدون أن "الدين ليس مهمًّا في حياتهم"، وجميعهم تقريبًا (٩٧٪) قالوا: إنهم نادرًا ما يصلُّون أو أنهم لم يصلُّوا أبدًا طوال حياتهم.
  - قال ٩٪ فقط من الملحدين: إنهم يناقشون آراءهم حول الدين والله مع المتدينين مرة واحدة في الأسبوع في الأقل، فيما قال ما يقرب من الثلثين (٦٥٪): إنهم نادرًا ما يناقشون، أو إنهم لم يناقشوا ذلك أبدًا مع المتدينين[١].
- تقرر مجلة تايم الأمريكية أن بعضًا قد يظن أن الملحدين وغير المؤمنين بالله يندرجون تحت عنوان واحد مشترك، وأن طريقة تفكير الملحدين واحدة وتتمحور حول نفي وجود الله واعتبار الديانات أساطير وخرافات، وتقرير المجلة أظهر اختلافًا في نمط تفكير الملحدين ودوافعهم، على النحو الآتي:
  - ملحدون مثقفون يستندون على معلومات ودلائل يجمعونها حول الديانات ويقتنعون بها تصلح أساسًا لجدالهم ومناظراتهم.
  - ملحدون نشطاء، وينشطون بالدعوة إلى الإلحاد، ويؤكدون أن العالم سيكون مكانًا أفضل إذا ساده الإلحاد.

---

(١) ١٠ "حقائق" عن الإلحاد والملحدين في الولايات المتحدة، تقرير، موقع مونت كارلو الدولية، ١٠ أكتوبر ٢٠١٦، الرابط:

https://cutt.us/gy79A

○ ملحدون طلاب لا يتمسكون بمعتقدهم الإلحادي تمسكًا تامًّا، ولا يملكون موقفًا محددًا من قضية وجود الله.

○ ملحدون معادون للمؤمنين، ويحاربون الإيمان، ويصنفون اعتناق الأديان جهلًا، ويرون أنفسهم أكثر الناس إدراكًا لخطورة الأديان على العالم.

○ ملحدون يُعدون أقلية بالنسبة لأنواع الملحدين الستة، وهم ببساطة لا يخوضون بأمور وجود الدين من عدمه.

○ ملحدون يتبعون بعض طقوس الديانات، وهم مجموعة لا تؤمن بالديانات أو وجود حياة بعد الموت، لكنهم يتبعون عادات ذات أصول دينية مثل: التأمل أو اليوغا إلى جانب احتفالهم بالأعياد الدينية[١].

وقد نشر موقع سي. إن. إن. الإخباري الأمريكي صور عشرات الملحدين من كبار المشاهير في مجالات عدة وتحت كل منها معتقداتهم في سطور، وتكشف معتقداتهم درجة التنوع في تصورات الملحدين الفردية، ومن هؤلاء:

- رجل الأعمال البريطاني السير ريتشارد برانسون وقال: إنه يؤمن بنظرية النشوء والارتقاء، وأهمية الجهد الإنساني، ولا يؤمن بوجود الله.
- الممثل البريطاني دانيل رادكليف (اشتهر بدور هاري بوتر) وأعلن أنه ملحد راضٍ بإلحاده، لكنه لا يبشر به، لكنه يكنُّ "قدرًا كبيرًا من الاحترام لأشخاص مثل ريتشارد دوكينز يبشرون بإلحادهم".
- الممثلة جوليان مور سئلت عما تريد أن تسمع الله يقول لها على باب الجنة، فأجابت: أنها تود أن تسمعه يقول: "أنتِ كنتِ على خطأ فأنا موجود".
- الممثل الإسباني خافير براديم نُقِل عنه قوله: "أنا كنتُ دائمًا أقول: إني لا أُؤمن بالله، بل أُؤمن بالممثل آل باتشينو".

---

(١) تعرف على الأنواع الستة للإلحاد، تقرير، موقع سي إن إن الإخباري، ٢٧ أكتوبر ٢٠١٣، الرابط:
http://archive.arabic.cnn.com/2013/entertainment/10/27/the-six-types-of-atheists

- الممثلة البريطانية كيرا نايتلي قالت مازحة: إنها تتمنى أن تكون كاثوليكية لو لم تكن ملحدة.
- الممثل بول جياماتي قال: "إن زوجتي يهودية، ولا أرى ضيرًا في تربية ابني ليكون يهوديًّا، وسأتحدث لابني عن إلحادي حين يكون الوقت مناسبًا".
- المعلق الشهير في شبكة سي بي أس نيوز التلفزيونية الأمريكية آندي روني، قال: "أنا ملحد ولا أفهم الدين بالمرة،... أعتقد أن الدين كله هراء".
- الممثلة البريطانية إيما تومسون قالت: "أنا ملحدة، وأحسب أن بإمكانكم أن تسموني فوضوية متحررة"، وتنظر إلى الدين "بخوف وارتياب، ولا يكفي القول: "أنا لا أُؤمن بالله" بل أنا في الحقيقة أرى أن منظومة الدين تبعث على الغم".
- المغني وكاتب الأغاني بيلي جويل حين سُئل: إن كان يؤمن بالله؟ كان رده: "كلا، فأنا ملحد"، ويقول في إحدى أغنياته: "أنا أفضل الضحك مع الآثمين على البكاء مع القديسين".
- الساحر الشهير بين جيليت، ونشر كتابًا قال فيه: "إذا مُحي كل أثر لأي دين ولا يُنقل شيء من جيل إلى آخر، فإنه لن يُصنع بهذه الطريقة من جديد أبدًا، بل قد يكون هناك هراء آخر بدلًا منه، ولكنه لن يكون الهراء نفسه على وجه الدقة".
- المخرج جيمس كاميرون (فاز بالأوسكار) قال: إنه اعتنق "اللاأدرية"، أعلن نبذه اللاأدرية لأن "اللاأدرية إلحاد جبان".
- أكد الممثل البريطاني هيو لوري، إلحاده، وقال: "أنا لا أُؤمن بالله".
- قالت الممثلة جودي فوستر: إنها ملحدة، وأضافت "لكني أحب الأديان والطقوس حبًّا جمًّا".
- سيث ماكفارلين فنان الرسوم المتحركة الأمريكي سُئل عن عقيدته فقال: إن الإلحاد لا يختلف عن حركة الحقوق المدنية، "ولا بد من وجود أشخاص يرفعون صوتهم من أجل تقدم المعرفة على الايمان".

• الممثل البريطاني ريكي جارفيس كتب عن رحلته مع الدين: "لو كذبتْ أُمي علي بشأن الله، هل تكون كذبت بشأن وجود بابا نويل أيضًا؟ نعم، بالطبع، ولكن لا يهم. فالهدايا ظلت تنهال، وكذلك هدايا الإلحاد الذي وجدته حديثًا، هدايا الحقيقة والعلم والطبيعة، الجمال الحقيقي لهذا العالم".

• العالم البيولوجي البريطاني والملحد المشهور ريتشارد دوكينز لخص آراءه في الدين في كتابه: "وهم الله"، قال: "نحن جميعًا ملحدون بشأن غالبية الآلهة التي آمنت بها البشرية سوى أن بعضنا مضوا في إلحادهم إلهًا أبعد من الآخرين".

• الكاتب الملحد البريطاني كريستوفر هيتشينز عدَّ الدين "مصدر الكراهية الرئيس في العالم".

• عالم الأعصاب الكاتب سام هاريس يَعُدُّ أن "أكبر مشكلة تواجه الحضارة هي ليست التطرف الديني فحسب، بل المجموعة الأوسع من التفاهمات الثقافية والفكرية التي عقدناها مع الإيمان نفسه".

• يقول الفيزيائي البريطاني ستيفن هوكينز: إن الله لم يخلق الكون بل "إن خلقًا عفويًّا هو السبب في أن يكون هناك شيء ما أو لا شيء أو أن يكون الكون موجودًا".

• يقول غريغ إبستين، الموصوف بأنه: "رجل الدين الإنساني" في جامعة هارفارد: "أن يُقال: إن المرء لا يمكن أن يكون صالحًا من دون الله هو ليس مجرد رأي، ليس فكرة غريبة فحسب، بل إنه حكم مسبق".

• يرفض الكاتب الأمريكي كورت فينيغود الإيمان بوجود قوة فوق طبيعية. ودراسة الأنثروبولوجيا "أكدتْ إلحادي الذي كان دين آبائي".

• كاتب روايات الخيال العلمي إسحاق آسيموف قال: "لو لم أكن ملحدًا لآمنتُ بإله ينقذ البشر على أساس كلية حياتهم وليس نمط أقوالهم، وأعتقد أنه سيفضل ملحدًا أمينًا مستقيمًا على واعظ تلفزيوني كل ما يقوله: الله، الله، الله، وكل ما يفعله منكر، منكر، منكر".

• المؤلفة آين راند ملحدة معادية للدين، وفي كتابها: "صوت العقل"، انتقدت

الرئيس رونالد ريغان وإدارته لمحاولتهما "إعادتنا إلى القرون الوسطى عن طريق اتحاد غير دستوري بين الدين والسياسة".

- الممثلة كاثرين هيبورن (فازت بـ ٤ جوائز أوسكار) قالت: "أنا ملحدة، وهذا كل ما في الأمر"[١].

وقد أثارت دراسة حديثة نقاطًا جدلية عديدة، والدراسة أعدها ١٢ باحثًا بجامعات من ٥ قارات مختلفة، تحت عنوان "دليل عالمي على التحيز الأخلاقي الحدسي المتشدد ضد الملحدين"؛ إذ يعتقد كلٌّ من المتدينين والملحدين اعتقادًا بدهيًّا أن مرتكبي الأعمال غير الأخلاقية المتطرفة هم على الأرجح ملحدون، وذلك وفق الدراسة المنشورة في Nature Human Behaviour. الدراسة خلصت إلى أن هذا التحيز ضد الملحدين موجود في معظم البلدان الـ١٣ التي شملتها الدراسة، سواء الدينية منها والعلمانية، وأنه مع تراجُع مستويات التدين في كثير من البلدان؛ فإن شيوعه لآلاف السنين ولَّد الفكرة السائدة بأن الأخلاق تتطلب وجود معتقد ديني لدى أصحابها. وتقول الدراسة: إن التحيُّز ضد الإلحاد ينبع جزئيًّا من شعور متجذر داخل المجتمعات بأن الدين يؤدي دورًا ضروريًّا في ترسيخ الأخلاق، وأن ارتفاع مستويات علمانية الدول الغربية لم يمنع التحامُل ضد الملحدين، وأن الشكوك الأخلاقية الراسخة ضدهم تعبِّر عن استمرارية تأثير العامل الديني على الأحكام الأخلاقية، وعن وجود شكوك أخلاقية عميقة في الأفراد الذين لا يؤمنون بالأديان. وأظهرت الدراسة أنه مع الأدلة التي تدعم دعاوي طويلة الأمد تقول بأن الديانات تهيئ لمد شبكات التعاون بين الأفراد والمجتمعات، إلا أن مكوِّن الدين قد يفاقم أيضًا الصراع مع أولئك الذين يختلفون مع بعضهم دينيًّا، فضلًا عن تعزيز الصراع بين الجماعات والتحامُل الضمني ضد "غير المؤمنين"[٢].

---

(١) كلٌّ يرى (وجود الله) من منظاره، ملحدون مشاهير ومعتقداتهم، تقرير، ترجمة: عبدالإله مجيد، موقع إيلاف الإخباري، ١٩ سبتمبر ٢٠١٥، الرابط:

https://elaph.com/Web/News/2015/8/1028858.html

(٢) حتى داخل البلدان العلمانية... التحيز الأخلاقي ضد الملحدين إلى تزايُد، تقرير، ساينتيفيك أميريكان، ٩ =

وبينت الدراسة أن تزايُد القلق من التحيز ضد الملحدين في المجتمعات العلمانية بات يؤثر في فرص العمل والانتخابات والحياة الأسرية والإدماج الاجتماعي الأوسع نطاقًا، واعتمدت الدراسة على عينة من ١٣ بلدًا غطت قارات أوربا وآسيا وأمريكا وأستراليا وإفريقيا، (الصين والتشيك وفنلندا وهونج كونج والهند وهولندا ونيوزيلندا وسنغافورة وبريطانيا وأستراليا وأمريكا والإمارات وموريشيوس). وكانت دراسة صادرة عن "منتدى بيو فوروم للدين والحياة العامة" في عام ٢٠١٢ قد كشفت أن أكثر من ٨٤٪ من سكان العالم يتبعون الأديان السماوية، أو من المؤمنين باعتقاد أو بشيء ما، أما الباقي فلا يؤمنون بشيء على الإطلاق، كما صنفوا هم أنفسهم في حملة أَجْرَت أكثرَ من ٢٥٠٠ إحصاء في ٢٣٠ دولة ومنطقة جغرافية بالعالم[١].

واختبر ويل جيرفايس أستاذ علم النفس بجامعة كنتاكي، الباحث الرئيس في الدراسة التصور القائل بوجود صلة بين الإلحاد وعدم الالتزام الأخلاقي في أكثر من ٣٠٠٠ شخص من ١٣ بلدًا مختلفًا في ٥ قارات. ووجد الباحثون أن مَن يعتقدون أن الأفعال غير الأخلاقية المشينة تأتي ممثلة للملحدين أكثر مرتين تقريبًا من المؤمنين (باستثناء فنلندا، وإلى حد أقل نيوزيلندا)، وأن المشاركين الملحدين يُظهرون أيضًا التحيز نفسه ضد فئة الملحدين. وتكشف الدراسة عن أن الشكوك الأخلاقية البدهية تجاه الملحدين –وإن لم تكن عالمية– فهي منتشرة ثقافيًّا، وتظهر في كلٍّ من المجتمعات العلمانية والدينية، وبين المؤمنين والملحدين على السواء كما أنه يكشف عن تبايُن كبير بين التصورات العلمية والانطباعات الذاتية لدى الأفراد عن العلاقة بين الدين والأخلاق، والتصورات القائلة بوجود صلة ضرورية بين الأخلاق والدين تبدو قوية جدًّا. يقول ويل جارفيس: "يبدو أن

= أغسطس ٢٠١٧، الرابط:

https://www.scientificamerican.com/arabic/articles/news/even-in-the-secular-countries-intuitive-moral-prejudice-against-atheists-to-increase/

(١) حتى داخل البلدان العلمانية... التحيز الأخلاقي ضد الملحدين إلى تزايُد، مصدر سبق ذكره.

عدم الثقة بالملحدين ينبع إلى حد كبير من رؤية الناس للدين والأخلاق". ويضيف: "كثير من الناس في جميع أنحاء العالم، وربما معظمهم يفترض أن الدين مصدر الأخلاق، فإذا كنت تفترض أن التدين عنصر ضروري من عناصر تحلي الشخص بالأخلاق؛ فإن الملحدين سوف يبدون لهؤلاء -بطبيعة الحال- مثل نماذج شاذة لا يمكن الوثوق بها". وعدم الثقة بالملحدين كانت أكثر وضوحًا عامةً في البلدان الأكثر تدينًا، واتضح هذا بجلاء في بلدان ذات خلفيات دينية متنوعة، موضحًا أنه في جميع البلدان ذات الأغلبية المسيحية والمسلمة والهندوسية، نجد أنه كلما كان الدين أكثر انتشارًا كانت عدم الثقة الأخلاقية بالملحدين بارزة أكثر، ويشدد جارفيس على أن "نتائج الدراسة أظهرت أن الناس في كثير من البلدان لا يثقون أخلاقيًّا بالملحدين"[١].

وأظهرت الدراسة أن عدم الثقة الأخلاقية بالملحدين واضحة على الصعيد العالمي، سواء على نطاق المجتمعات المتدينة وعلى نطاق المجتمعات شديدة العلمانية، وأنه مع أن هذه البلدان يقل فيها التدين العلني في كثير من المواقف، إلا أن الدين لا يزال يترك علامة عميقة ودائمة على الحدس الأخلاقي البشري داخلها. وتشير نتائج الدراسة إلى انعدام ثقة -بصورة متسعة- تجاه الملحدين، كما تُظهر ميلًا إلى فكرة أن الأخلاق تتطلب اعتقاد وجود الإله؛ إذ كانت إجابات مَن استُطلعت آراؤهم في هذا الشأن تدور حول أنه من دون وجود الله "يصبح كل شيء مباحًا، ويكون بمقدور الشخص فعل أي شيء"؛ إذ يشير مصطلح "فعل أي شيء" إلى شدة التطرف غير الأخلاقي[٢].

(١) حتى داخل البلدان العلمانية... التحيز الأخلاقي ضد الملحدين إلى تزايُد، مصدر سبق ذكره.

(٢) حتى داخل البلدان العلمانية... التحيز الأخلاقي ضد الملحدين إلى تزايُد، مصدر سبق ذكره.

الفصل الرابع: الدين والفضاء العام والدولة والفرد

انطلاقًا من القاعدة الأصولية: "الحكم على شيء فرعٌ عن تصوره"، ولا يستقيم إطلاق أحكام يدعي أيُ فريق أنها تحدد طبيعة علاقة الدين بالحياة، وفي النطاق السياسي، علاقته بالدولة أو السياسة، ودور الدين في الفضاء العام بمعناه الواسع: الاجتماعي والثقافي والسياسي، بدون تعريف الدين. وفي نظر الشيخ الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل فإن الدين هو:

أولًا: التسليم الأولي أو "الاعتقاد" الذي لا يشترط البرهان.

ثانيًا: وجود مجموعة من المبادئ العليا التي لا يمكن الاستغناء عنها، ومع ذلك فهي غير قابلة للبرهنة.

ثالثًا: الإيمان بموجود لا يمكن إدراكه بالحواس، سواء كان هذا الإدراك مباشرًا أو غير مباشر.

رابعًا: الخضوع أو التعبد لقانون أو (و) إرادة ذلك الموجود"[1].

وهو تعريف دقيق استنادًا إلى ما جاءت به الأديان السماوية.

و"المقدس وجه جوهري للدين وعماد أساسي من أعمدته، والمؤمن يتمثل هذا المعنى تمثلًا دقيقًا شاملًا، ويخضع له على وجه التبجيل والاحترام والمحبة والخوف والرهبة والتسليم، وفي الإيمان الإسلامي -الذي هو موضوع القول هنا- يدخل في باب المقدس: الموجود الأول، الله السامي، الجليل، العليِّ أو المفارق، وجملة من الموجودات "الوسيطة" -الملائكة والأنبياء- وما ينقلونه عن الموجود الأول، الله، من أقوال أو "نصوص" أو "وحي"، ويدخل في الباب نفسه أمكنة ينبغي احترامها وعدم خرق طهارتها ونقائها وقدسيتها كبيت المقدس، والكعبة والبيت الحرام... ومن أحكام

---

(١) حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب، الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف، سلسلة قضايا إسلامية معاصرة، مصر، د. ت.، ص ٥٥.

المقدس ومنطقه أنه يتعين احترامه بإطلاق والانحصار عن مساءلته أو مناقشته أو الدخول معه في سجال -وهو ما خرقه بإرادته وحريته، إبليس على سبيل المثال- أي: أن الإجلال والخضوع والصمت هي المظاهر والمواقف التي ينبغي أن تحكم علاقة "الدنيائي" وأهله بالمقدس. فلا "فسق" ولا "فجور" ولا "جدال" ولا تعدٍّ أو تطاول بالقول أو بالفعل أو الانفعال على المقدس"[1].

في المقابل نشأت نظرة أخرى للإنسان والكون مثلت العلمانية الفرنسية "اللائكية" عمادَها، وعرَّف موريس باربيه اللائكية في مفهومها الواسع بأنَّها: "الفصل بين الدين والحقائق الدنيوية". والفلسفة الغربية -وبخاصة في العصر الحديث استقلت عن اللاهوت، ومختلف العلوم- تكوّنَت خارج إطار المسيحية بل أحيانًا ضدَّها. وعليه؛ استقلت كل الحقائق الإنسانية: السياسية، والاجتماعية، والثقافية عن الدين، وتعمل اللائكية الفرنسية مستندة إلى ذراعين متكاملين ومتعاضدتين:

أولًا: عبر آلية الرقابة والضبط العقابي للدولة الجمهورية اللائكية التي تقوم على حراسة القيم الجمهورية اللائكية وضبط المباح والممنوع من منظور هذه الدولة.

ثانيًا: عبر أدوات التوجيه الثقافي والأيدولوجي التي تصوغ الشخصية الفردية، وتزود الفضاء العام بالقيم العلمانية. وعلى رأس ذلك: المدرسة.

ومن ثم" فاللائكية الفرنسية لا تكتفي بتحرير السياسي من سيطرة الكنيسة، وإنَّما تراهن على مقارعة الدين عامة وطرده من الفضاء العام لتحل محله القيم اللائكية الصلبة". واللائكية الفرنسية ليست مجرد آلية لمعالجة قضية الانقسام الديني أو الطائفي، بل هي: "أشبه ما يكون بالعقيدة الشمولية والصارمة التي تراهن على الحلول محل الأديان والعقائد بعد امتصاص الكثير من مظاهرها وتعبيراتها في قالب علماني"، وتقوم

---

(١) دكتور فهمي جدعان، المقدس والحرية، وأبحاث ومقالات أخرى من أطياف الحداثة ومقاصد التحديث، سبق ذكره، ص ٢٢-٢٣.

على دعامة نظرية مُفادها اعتبار الدولة اللائكية ضامنة الوحدة الاجتماعية والسياسية، وحارسة الهوية العامة[١].

وعَرَّف قاموس أكسفورد العلمانية بأنَّها: "العقيدة التي تذهب إلى أنَّ الأخلاق لا بُدَّ أنْ تكون لصالح البشر في هذه الحياة [الدنيا]، واستبعاد كل الاعتبارات الأخرى المستمَدة من الإيمان بالإله أو الحياة الأخرى [الآخرة]".

و"العلمانية اليوم نوعان: ملحدة تبلورت في القرن ١٩ بعد ظهور الفلسفة المادية من مدرسة هيغل"، ويُعَدُّ لودفيغ فيورباخ أبرز مؤسسيها، و"تستهدف إلغاء الدين وليس مجرَّد الفصل بينه وبين الدولة. وفي التقليد الأنجلوسكسوني، كانت العلمانية "حركة تصبو إلى حماية المجتمع المدني من تدخل الدولة في مجاله"، وهذا عكس المسار الفرنسي؛ إذ لم يكن نقيضه البريطاني -مثلًا- "مسارًا صداميًّا يفرض القطع الجذري كما كان الحال في فرنسا"، ولم تشهد بريطانيا "ذلك الجدل الفرنسي بين اللائكيين خاصة من المفكرين ومن رجال التعليم، ورجال الدين"، بل تمثَّلت العلمنة في "موقف سياسي ونظرة فكرية للواقع"، وهو ما شهدته اليابان؛ حيث تعد العلمانية موقفًا سياسيًّا وفكريًّا[٢].

في تعريف الإلحاد:

أما الإلحاد، فكلمةٌ عربيةٌ فصيحة يُراد بها الميل عن الشيء، والابتعاد عنه، و"اللحد: ما حُفر في عرض القبر، وقبر ملحد. والرجل يلتحد إلى الشيء: يلجأ إليه ويميل، وألحد إليه ولحد إليه بلسانه، أي: مال. وقال ابن فارس: "لحد" أصل يدل على ميلٍ عن استقامة، وبمعنى آخر: فإن الملحدُ: "العادل عن الحق المُدخِل فيه ما ليس منه".

ومصطلح الإلحاد في اللغة مصطلح عام يتضمن الميلَ والعدول عن الاستقامة،

---

(١) عبده مصطفى دسوقي، موقع الموسوعة السياسية، ٢ يونيو ٢٠١٨، الرابط:

https://cutt.us/l0XwJ

(٢) عبده مصطفى دسوقي، موقع الموسوعة السياسية، ٢ يونيو ٢٠١٨، الرابط:

https://cutt.us/l0XwJ

وعن الدين؛ فهو يُستعمل في كل معوجٍّ غير مستقيم، فأصل الإلحاد في كلام العرب: هو العدول عن القصد، والميل والجور، والانحراف.

ومفهوم الإلحاد في الشرع: هو الميل عن الدين الحق؛ فقد يكون الإلحاد بالشرك وإعطاء خصائص الألوهية لغير الله، أو بإشراك آلهة أخرى مزعومة معه، وقد يكون الإلحاد بإنكار وجود الله. ومن المعاصرين عرفه ابن حَبَنَّكَة فقال: "هو إنكار وجود ربٍّ خالق لهذا الكون متصرف فيه يدبِّر أمره بعلمه وحكمته، ويُجري أحداثه بإرادته وقدرته"(١).

ومع أنَّ الإلحاد الجديد صناعة أوربية بامتياز، فإنَّه ليس هناك إجماع بين الغربيين المتأخرين والمعاصرين على تعريف الإلحاد، لكنَّهم عبروا عن الإلحاد بكلمات متشابهة مشتقة من اللفظ اليوناني: ATHEOS، وتتكون من مقطعين: A بمعنى فقدان أو غياب و THEOS بمعنى الإله، ويكون معنى الكلمة: نفي الإله. وتطلق على الشخص الذي لا يعتقد بالإيمان بالله، سواء نفى وجوده أم لا.، وبحسب چوليان باغيني البريطاني فإن "الإلحاد هو الإيمان أنه لا يوجد إله أو آلهة"، وبحسب "الموسوعة الفرنسية" فإن المُلحد: هو "الشخص الذي يحصل على كل التعاليم التي يمكن للدين أن يمده بها عن وجود الله، ثم يدَّعي أنَّ الله لا وجود له".

تنازع الرؤيتين في السياق العربي:

هذه العلاقة لم تشهد نزاعًا بين رؤيتين إلا في العصر الحديث؛ إذ تشهد الثقافة العربية منذ الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ تحولًا غير مسبوق في تاريخ المسلمين، يتمثل في تنازع واضح بين الدين والوضعية -بالمعنى الواضح للَّفظين-، وقبل حلول النصف الثاني من القرن الـ٢٠ كان هذا التنازع يشهد مواجهاتٍ حادة في فضاء

---

(١) الإلحاد الجديد في المجتمعات الغربية والعربية.. مفهومه ونشأته وأسباب ظهوره وسُبُل مواجهته، د. فلاح عبد محمد الدليمي، موقع مركز الأمة للدراسات والتطوير، الرابط:

https://alummacenter.com/?p=3441 6 مارس، ٢٠٢٣

الثقافة والفكر شملت أسماء بينها: إسماعيل مظهر وطه حسين وعلي عبد الرازق وغيرهم. ومع تغير بِنْية عالم وسائط التواصل في حقبة تبدأ مع الربع الأخير من القرن العشرين، تغير نطاق التأثير وطبيعة الوسائل وقدرة الدول على فرض معايير، فضلًا عن تحول القيم الأكثر تأثيرًا في المواثيق الحقوقية الدولية: الفردية والليبرالية.

وقد أسهم التضخم الأسطوري لحجم الأصول المالية -لِما كان يسميه المفكر الكبير الدكتور عبد الوهاب المسيري: "قطاع اللذة والترفيه"، وبخاصة الإعلام الرقمي- إلى طغيان "سلع ثقافية" لم تعرفها البشرية منذ اختراع المطبعة. ومن ثمار هذه التحولات (في بلادنا والعالم) أن نشب "شجار" عنيف بين منظومات القيم المختلفة، وفي القلب من هذا الشجار أصبح هناك مواجهة بين الإيمان والإلحاد. وأحد الدروس المهمة لهذه المواجهة أن ملحدين كثيرين يصرون على تقييم "الإلحاد" انطلاقًا من تقييم "شخصي/ فردي" لأشخاص ملحدين، والملحدون شيء والإلحاد شيء آخر. والأمر نفسه ينطبق على الإيمان. والإلحاد "شر" بالتقييم المعرفي، وبعض الملحدين -على المستوى الإنساني- ليسوا أشرارًا، وفي المقابل فإن "المؤمن الشرير" لا يجعل الإيمان بأي معيار منصف يستحق أن يوصف بأنه شر. والإلحاد موقف "لاأخلاقي" لكن بعض الملحدين يبقى على قيد الحياة من فطرتهم ما يجعلهم "أخلاقيين/ إنسانيين" بدرجة أو أخرى، والإلحاد ليس كذلك!

والحرية الفردية والجماعية تتقاطع دائمًا مع الإيمان، وملحدون كثيرون كانوا يصرخون طلبًا لحريتهم ويقمعون كل "الآخرين"!

والملحد شخص لا يؤمن بوجود أية آلهة ولا يعتنق أي دين، وهم غير اللاأدريين الذين ليس لهم يقين ديني ولا إلحادي، وحسب دراسة أجرتها جالوب (٢٠١٥)، فإن "الملحدين عن قناعة" لا يمثلون سوى ١١٪ من مجموع سكان العالم، ولا يمثلون أغلبية سوى في الصين (٦١٪). وخلافًا للميول العامة في القرن العشرين؛ فإن الإلحاد لم ينتشر في السنوات الأخيرة. والمؤسسة نفسها أجرت دراسة في ٢٠١٢ أفادت بأن ١٣٪

من سكان العالم كانوا يُعِدُّون أنفسهم ملحدين عن قناعة[١].

صُنفت أمريكا بين عامي ١٩٨١ و٢٠٠٧ واحدة من أكثر دول العالم تدينًا، مع تغير طفيف في مستويات التدين، لكنها منذ ذلك الحين أظهرت أكبر معدلات عزوف عن الدين مقارنة بأي بلد آخر، ومع اقتراب نهاية تلك الحقبة كان متوسط تقدير الأمريكيين لأهمية الرب في حياتهم ٨,٢ نقاط على مقياس من ١٠ نقاط، وفي أحدث دراسة استقصائية أجريت في الولايات المتحدة عام ٢٠١٧ انخفض الرقم إلى ٤,٦، وهو انخفاض حاد على نحو مذهل. وأشارت دراسة نشرها مركز بيو للأبحاث عام ٢٠١٩ إلى أن التدين في أمريكا في تراجع حاد؛ إذ تتزايد جموع الأشخاص الذين لا يلتزمون بأي دين سريعًا، في وقت انخفض فيه حضور الكنيسة بشدة[٢].

وكشف مسح لمركز بيو الأمريكي عن خلاصة عامة مهمة هي أن: غالبية الأمريكيين يفضلون المتدينين (أيًّا يكن دينهم) على الملحدين؛ ففي مسح أجراه المركز عام ٢٠١٤، أعطى الأمريكيون تقديرًا متوسطًا قدره ٤١/ ١٠٠ للملحدين مقارنة بـ٤٠ للمسلمين و٦٣ لليهود و٦٢ للكاثوليك و٦١ للمسيحيين الإنجيليين. وقال ٥١٪ من الأمريكيين: إنهم لن يدعموا مرشحًا ملحدًا للرئاسة، ومع ارتفاع النسبة فإنها شهدت انخفاضًا بالمقارنة مع ٦٣٪ عام ٢٠٠٧. في الوقت الحالي لا يوجد أي عضو في الكونغرس الأمريكي يعرِّف نفسه بـ"الملحد"، فيما تصف عضوة وحيدة في مجلس النواب نفسها بـ"غير المنتمية دينيًّا". وما يقرب من نصف الأمريكيين ٥٣٪ قالوا: إن الإيمان بالله غير ضروري لكي يكون المرء أخلاقيًّا، وذلك وفقًا لمسح عام ٢٠١٤[٣].

---

(١) أن تكون ملحدًا في ٢٠١٧، تقرير، موقع فرانس ٢٤، ٥ يناير ٢٠١٧. الرابط:

https://cutt.us/jVHDv

(٢) بعد انتخاب ملحد رئيسًا لمجتمع جامعة هارفارد الديني.. صعود الإلحاد أم تراجع الدين في أمريكا؟، الجزيرة نت، ٢٦ سبتمبر ٢٠٢١، الرابط:

https://2u.pw/rbAgpK

(٣) ١٠ "حقائق" عن الإلحاد والملحدين في الولايات المتحدة، موقع مونت كارلو الدولية، ١٠ أكتوبر =

وفي مقال مشترك نشرته أستاذتا علم الاجتماع بيني إدجيل ووينى كادج، قالت الكاتبتان: إن الاتجاهات التي يبرزها موقف إبستين ليست جديدة؛ إذ تزايدت أعداد الأمريكيين غير المتدينين بدين الذين يشار إليهم أحيانًا باسم "اللادينيين"، من ٧٪ من السكان عام ١٩٧٠ إلى أكثر من ٢٥٪ اليوم، في حين يقول ٣٥٪ من جيل الألفية: إنهم لا ينتمون إلى أي دين معين. وأضافت الكاتبتان – في مقالهما لموقع the conversation –: إنهما بوصفهما باحثتين في علم اجتماع الدين درستا هذه التحولات وآثارها، وفي دراسة حديثة مع زملائهم في جامعة مينيسوتا يظهر أنه مع أن الأمريكيين أصبحوا أكثر قبولًا لأشكال بديلة من الروحانية، فهم لا يزالون أقل تقبلًا لمن يعدونه علمانيًّا تمامًا. وثمة عدم ارتياح أخلاقي مستمر لدى كثير من الأمريكيين بشأن الإلحاد.(١)

ولطالما ولَّد الإلحاد خلافًا في أمريكا يعود إلى الحقبة الاستعمارية، لكن "العصر الذهبي" للفكر الحر في أواخر القرن الـ١٩ أدى إلى ظهور أول التعبيرات العامة عن التشكُّك في الدين، وفي عشرينيات القرن الماضي، سلطت "محاكمة القرد" التي تناولت تدريس نظرية داروين للتطور في المدارس العامة الضوء على الصراعات حول السلطة الدينية في القوانين والمؤسسات الأمريكية. ومؤخرًا، عزَّز عدد متزايد من المنظمات الملحدة الفصل بين الكنيسة والدولة، وحاربوا التمييز، ودعَّموا السياسات المؤيدة للعلم على حساب الدين، وشجعوا الشخصيات العامة على "إظهار" إلحادهم. مع هذا التنظيم والظهور المتزايد،؛ فإن نسبة كبيرة من الأمريكيين لا يثقون في الملحدين ليكونوا جيرانًا ومواطنين جيدين، ووجدت دراسة استقصائية وطنية أمريكية عام ٢٠١٤ أن ٤٢٪ من

= ٢٠١٦، الرابط:

https://url-shortener.me/D0OS

(١) بعد انتخاب ملحد رئيسًا لمجتمع جامعة هارفارد الديني.. صعود الإلحاد أم تراجع الدين في أمريكا؟، الجزيرة نت، ٢٦ سبتمبر ٢٠٢١، الرابط:

https://2u.pw/rbAgpK

الأمريكيين قالوا: إن الملحدين لا يشاركونهم "رؤيتهم للمجتمع الأمريكي"، و ٤٤٪ لا يريدون أن يتزوج أبناؤهم من ملحد. لم تتغير هذه النسب المئوية تقريبًا في متابعة عام ٢٠١٩. وفي المجتمع الأمريكي يزداد قبول التوجهات "الإنسانية" نظامً أخلاقيًّا بديلًا عن الدين[١].

والملحدون الأمريكيون مستاؤون منذ زمن بعيد من عبارة "بالله نؤمن" الممهورة على الدولار، وحاولوا أكثر من مرة الاحتكام إلى القضاء لإلغائها. وبصورة متكررة ترفع جماعة منهم دعاوى بحيثيات قضائية لتحقيق هدفهم. والملحدون يدعون أنها غير دستورية وتتناقض مع فصل الدين عن الدولة، بالإضافة إلى أنها تجرح مشاعرهم. ومحاموهم حاولوا أيضًا إلغاء كلمتي Under God الملزم بلفظها من يقسم يمين الولاء الأمريكي، المتضمن عبارة "أمة واحدة في ظل الله" فخسروا المعاركَ كلَّها، والمحامي مايكل نيوداو، من مشاهير الملحدين الأمريكيين، إلى درجة أنه لم يكتب كلمة God أو "الله" في دعواه، بل G-D فقط، وقد شرح دعواه في ١١٦ صفحة. وقد أسس في ١٩٩٧ منظمة: FACTS اختصارًا لاسمها الطويل "كنيسة الإلحاد الأولى للعلم الصحيح".

سبق في الجانب الآخر من العالم أن جرت محاولة في ٢٠١٢ بالبرازيل لتجريد عملتها مما فيها من عبارات دينية، وكانت وزارة الخزانة الأمريكية أجرت استطلاعًا في ٢٠٠٣ أكد أن ٩٠٪ يقبلون بالعبارة التي رفضها ٣٪ فقط، ولم يكن للبقية رأي بشأنها[٢].

---

(١) بعد انتخاب ملحد رئيسًا لمجتمع جامعة هارفارد الديني.. صعود الإلحاد أم تراجع الدين في أمريكا؟، الجزيرة نت، ٢٦ سبتمبر ٢٠٢١، الرابط:

https://2u.pw/rbAgpK

(٢) كمال قبيسي، تقرير، ملحدون يطالبون أمريكا بإلغاء "بالله نؤمن" عن الدولار، موقع قناة العربية على الانترنت، ١٥ يناير ٢٠١٦، الرابط:

https://cutt.us/jpnsk

ملخص كتاب عرب بلا رب

عربٌ بلا رب

الإلحاد وحرية المجتمع في الشرق الأوسط

للكاتب الأمريكي براين ويتاكر

الجزء الأول: طرقٌ إلى الكفر

يعتقد الغربيون "أن العرب جميعَهم مسلمون ومتعصبون دينيًّا، لكن الواقع أكثرُ تعقيدًا"، فالمسلمون: سنَّة، شيعة، سلفيون، وهابيون، زيديون، صوفيون، علويون، إباضيون، إسماعيليون وغيرهم، وعددٌ متزايدٌ "أعلنوا إلحادَهم مؤخرًا، أو انضموا إلى اللاأدريّين[1]" أو الشُّكَّاك. وهم غالبًا "في الخفاء"، ومؤخرًا أعلنوا آرائهم مستفيدين بالإنترنت والثورات التي شجعتهم. وفي تحليله لصلة الإلحاد بالبنية الاجتماعية الثقافية، يقول وايتاكر: إنه حيث يهيمن الدين "على معظم جوانب الحياة اليومية، يسبِّبُ التحدي العلني للإيمان والدين صدمةً للأسرة والمجتمع" والحكومات، وكثيرٌ منهم اعتُقلوا "لمجرد البوح بأفكارهم"، وآخرون منفيون، ويُفضِّل معظمهم الكتمان.

هذه الأصوات المعارضة للسائد مشكلة للمجتمع المحافظ ومشكلة لأنظمة استبدادية تُؤسِّسُ شرعيتها المزعومة على أسسٍ دينية، والظاهرة على الأرجح ستنمو، رغم قمعها، ويرصد وايتاكر مؤثرًا مهمًّا يُعَدُّ مصدرَ سخط يغذي الإلحاد تغذية غير مباشرة، فالشباب أصبح "أكثر اطِّلاعًا على العالم الخارجي" بفضل الإنترنت والفضائيات والاختلاط بثقافات أخرى؛ بسبب الغُربة. وغالبًا "يُعبِّرون عن استيائهم عند مقارنة" أوضاع بلدانهم بالبلدان الأخرى؛ فيأتي رفضهم للدين رَدَّةَ فعلٍ على واقعهم، وأحد مطالبهم التغيير الواسع؛ فالدينُ من أسباب السخط، وهو عربيًّا (بعيدًا عن كونه مسألة شخصية) مُسيَّسة إلى حدٍّ كبير ومسؤول عن قيود اجتماعية كثيرة تسبب إحباطًا، وبخاصة بين الشباب.

وأحد أصول المشكلة أنه يُعامَل مقدسًا؛ ليبقى إنكاره التحديَ الأكبر "مقارنةً بأي قيدٍ أو مُحَرَّمٍ آخر"، ومع الانفتاح الكبير في الخِطاب العامِّ مؤخرًا. وبعض الشباب

---

(١) اللاأدرية: الاعتقاد بأن وجود الله والميتافيزيقيات (الغيبيات) أمورٌ لا سبيل إلى معرفتها، وكلمة "اللاأدري" تعني "بلا دراية أو بلا علم". وهي بعبارةٍ أخرى: فلسفة أو مذهبٌ لاديني يعتقد باستحالة التعرف على وجود الله أو التوصل لهذا الإيمان ضمن شروط الحياة الإنسانية.

الملحد ممن قابلتهم لتأليف الكتاب ناشطون "يشكِّكون في الدِّين"، "ويتَحدَّونه علانيةً"، ويرفضون إجبارهم على قواعد "يفرضها عليهم المؤمنون"، وكِلَاهما "يواجهان صعوباتٍ كثيرةً". ويواجهُ العرب الملحدون صراعَيْن: مع الدِّين نفسه، ومع المجتمعات والحكومات؛ ويشتركون مع ملايين المتديِّنين، ومع الأقليَّات الدينية خصوصًا، في سعيهم لنيل حقوقهم وحرياتهم الشخصية (المعتقد، التعبير، الضمير). ومَنْ لا يمتثلُ للسائد عربيًّا، قد يجدُ نفسه ضحيةً قوانين الردة. و"مساحةً كبيرة من هذا الكتاب تخطَّت موضوع الإلحاد لتناقش موضوع الحرية الدينية" ما "يهمُّ المؤمنين وغير المؤمنين" معًا.

وعربيًّا "تلْقى معتقدات الأقليَّات الدينية قبولًا أكثر من الإلحاد"، و"الكفرَ الصريحَ بالله يُقابَل... بنفورِ عامة الناس"، ولا نستطيع أن نقول: إن الحرية تحققت فعلًا إلا "عندما يصبح الملحد مقبولًا بين العامة، وحين يُحترَم كإنسانٍ عادي".

الفصل الأول: "إنكار الله وهدم المجتمع"

يستعرض وايتاكر حالاتٍ عربيةً، أولهم وليد الحسيني (٢٥ عامًا، فلسطيني)، خطرت له فِكرَةٌ غريبةٌ هي أنَّ الوقت "حان لأنْ يكون لله صفحة "على فيسبوك، فأنشأها وسماها: "أنا الله"، وأعلن فيها ساخرًا أنَّه الله"، وأنه سيتواصل مباشرةً مع عباده عبرها. "إحدى الإرشاداتِ الإلهيةِ التخيليةِ التي كتبها ونشرها"، "تحرِّمُ شرب الويسكي ممزوجًا بالبيبسي"، قال: إنَّ ""الله" أمرهم أنْ يمزجوا الويسكي بالماء بدلًا من البيبسي"، وفي منشور آخر "يَنصَحُ الله عباده بتعاطي الحشيش". وبعد أيام من النشر " اعتُقل"، وسجن أشهرًا، وهو الآن منفيٌّ بفرنسا.

ألبير صابر، مصري، ترك المسيحية، سافر لسويسرا بعد سجنه بتهمة "التهجم على الإسلام والمسيحية، وازدراء الشعائر والمقدسات الدينية".

قاسم الغزالي (طالب مغربي) نشر عن الإلحاد بدون كشف هويته؛ ثم كُشِفَت هويته واتُّهم بـ"زعزعة الدين"؛ وتوارى عن الأنظار، حتى لجأ لسويسرا.

الحسيني، تحوُّله للإلحاد نموذجي، وُلِدَ لعائلة "مسلمة عادية"، وتساءل مبكرًا: أنحن مخيَّرون أم مسيَّرون؟ فوجد نفسه أمام مسألة "حرية الإرادة" والقضاء والقدر، التي شغلت العلماء قرونًا، إنْ كان الله كُلِّيَّ المعرفة فإنه يستطيع التنبؤ بالشر، أي: أنه يستطيع منعه؛ فإنْ كان الخير صفةَ الله، فَلِمَ يرضى الشرَّ لخَلْقِهِ ثم يعاقبُهم؟ يقول القرآن: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾. سأل الحسيني مُعَلِّمَه، فأجابه بأنَّ الأسئلة حرام. وهي الإجابة الشائعة بالمجتمعات السلطويَّة؛ وعربٌ كثيرون ممن تركوا الدين سمعوها، وكانت العامل الرئيس في ذلك. ازداد فضوله فبحث عن الإجابة، يقول: وكلما تعمقت اكتشفتُ أمورًا "وبدأتُ بالابتعاد عن الدين" بالتدريج و"تركتُ الإسلام".

ويكشف وايتاكر حقيقة خطيرة تتصل بموقف شرائح واسعة من العلمانيين العرب من الدين والأيديولوجيات المادية، يقول وايتاكر: إن الحسيني لم يجد غرابة بقراره، كان يعلم أنَّ "كثيرًا من الكتاب الفلسطينيين المشهورين طرحوا أسئلةً تخصُّ الدين" منهم:

إدوارد سعيد (أعلن بصراحة أنه لا أدريٌّ).

الشاعر محمود درويش.

الروائي غسان كنفاني (كان عضوًا بارزًا بالجبهةِ العامةِ لِتحرير فلسطين).

"لكن عندما أخبر الحسيني زملاءَهُ في الجامعة أنه ترك الإسلام، شعر بالصدمة إزاء رِدة فعلهم"؛ إذ قالوا له: هذا حرام، افعل ما تشاء ولا تتخل عن الإسلام. قَصَدَ الحسيني شيوعيين، وكان رد فعلهم مشابهًا و"قالوا له: "نحن لا نأخذ من الشيوعية إلا طريقتها في القتال"". أنشأ الحسيني مدوَّنات: "نور العقل" (بالعربية) و"الملحد الفخور" (بالإنجليزية). يقول الحسيني: كنت أريد الحقيقة، "ولم يتابعني أحد" في البداية. كتب قبل اعتقاله: "يسألني المسلمون عادةً لِمَ تخليت عن الإسلام؟"، ما صدمني عدم قَبُولِهم فكرة أنَّ تَرْكَ الإسلام "خيارٌ متاحٌ"، وقناعتهم أن المتخلي عن الإسلام: عميلٌ، يحصل على مبالغ مالية كبيرة لقاء خدمات سرية يقدمها. أردتُ توضيح أنَّ "المسيحية واليهودية ليستا أفضل من الإسلام، وعلى القارئ ألا يظن أنني أرفض الإسلام وحده" وعدَّ "جميع الديانات أساطيرَ تعصف بالعقل، وركامًا من الهراء تتنافس فيما بينها أيها أغبى". اتُّهِم بعدة اتهامات، وحصل على تأشيرة لفرنسا.

حالة أخرى ألبير صابر (مصريٌّ) من عائلةٍ مسيحيةٍ نُفي بسبب منشوراته. يقول: "كان لدي صفحة بموقع: "Geocities"". انتشرت آراؤه بالجامعة فهدده الإسلاميون، وتعرَّض (بزعمه) لمحاولات اغتيال. وانتقل لجامعة أخرى. متاعبه تجددت بعد ثورة ٢٠١١ عندما لفتت منشوراته انتباهَ الإسلاميين مجددًا. في أزمة فيلم: "براءة المسلمين" (٢٠١٢) حاصر متظاهرون السفارة الأمريكية بالقاهرة. سأله أصدقاؤه عن الفيلم، فأراد توضيح الصورة، يقول: "قمت بمشاركة هذا الفيلم على الإنترنت لشرح قصته الحقيقية، وليس بهدف إهانة المسلمين". بعد أيام انتشرت صورته، ورقم هاتفه، وعنوانه بشبكات التواصل. واجتمع حشدٌ أمام منزله، وأُدين بحُكم بالسجن، ثم سافر لسويسرا.

وفي تحليله لطبيعة علاقة الدين بالسياسة والمجتمع يقول وايتاكر: يصعُب تجنب

الدين بالمنطقة، حتى عند مَن يحاولون "فمآذن الجوامع تصدَح بالأذان للصلاة"، و"لِحى الرجال، وخُمُرَ النساء، والاستخدام المستمر للمصطلحاتِ الدينيةِ في الأحاديثِ اليوميةِ تظهر مقدار الالتزام الديني". و"لمعظمِ الدول العربية ديانةٌ رسميةٌ" وقوانين صيغت تبعًا "لمفاهيمَ دينية"، و"الخياراتِ مقصورة على الديانات المعترَفِ بها رسميًّا"؛ وأحيانًا لا مجال "للاختيار بين الديانات أصلًا"، و"تقرِّر الدولة ديانة الفرد تبعًا لدين والديه"، و"يُعتبر تغيير ديانة الفرد"، "أمرًا صعبًا، وربما غير قانوني"، و"الزواج في مراسم لا دينيةٍ"، يمكنُ أنْ يكونَ مستحيلًا بدون السفر للخارج.

ولاستحواذ الدين على الناس بالمنطقة تاريخ؛ ففيها وُلد: "الإسلامُ والمسيحيةُ واليهودية". وجميعها تدَّعي "أنَّها على علاقةٍ خاصةٍ مع كائنٍ عظيمٍ يتصف بأنه أزلي كلِّيُّ القُدرَةِ ومطلقُ الحكمةِ؛ لكنَّ البشر العاديين لا يستطيعون رؤيته". و"تُنافس هذه الديانات التوحيدية بعضها بعضًا"، "مع القواسم المشتركة" بينها؛ وبكل دين تنافس طائفي، وتأويلات متضاربة لإرادة الله ممن يدَّعون معرفة "الحقيقةِ المطلقةِ"، ما أدى لسفك الدماء على مر العصور. وفي دول تَمتازُ بالتنوع -كلبنان وسورية والعراق- يحدث التقسيم الطائفي تبعًا للجغرافيا، ويشار للقرى والبلدات والأحياء تبعًا للطائفة السائدة فيها: السنية والشيعية والمارونية والدرزية والعلوية... إلخ.

فعندما يسأل اللبنانيون -مثلًا- عند التعارف: "من أي منطقة أنت؟"، هذه طريقة مؤدبة للسؤال عن الديانة أو الطائفة أو الآراء السياسية أحيانًا. والعرب غير المؤمنين والملحدون واللاأدريون جزءٌ من ظاهرةٍ جديدةٍ، وأعدادهم تزداد، ومؤخرًا ارتفع صوتهم وبدؤوا بالظهور، و"هم لا ينادون بحرية الدين فحسب بل بالتحرر من الدين كليًّا، وهذه خطوة أكثر راديكالية بكثير". الإيمان أو عدمه، وممارسة الشعائر الدينية أو عدمها مسائلُ داعبتْ أحيانًا عقول ملايين الناس قبل اتخاذ القرار بسنوات. يُعدُّ هذا قرارًا شخصيًّا في كثير من أنحاء العالم، لكن عربيًّا يُعَدُّ التصريح العلني بالكفر صادمًا، وأحيانًا خطيرًا؛ ولذا اختار كثيرون الإلحاد سرًّا، ويتبنى من لديهم الجرأة للمجاهرة بإلحادهم

لغةَ المطالبين بحقوق المثليين، وهنالك تشابه بين الإلحاد والمثلية؛ في التحريم والعواقب.

طبيعي أن تقلق العائلات المتدينة عندما تعرف أنَّ أحد أحبائهم سيدخل النار، والمرتد يواجه تعقيدات أخرى، فللدين هنا مناحٍ اجتماعية قوية أساسها مصطلح: "الأمة" (مجتمع المؤمنين)، ويميل المجتمع للنفورِ من "التعبير عن الحرية الفردية، والشذوذ عنه"، فعلى الأفراد التجمع والتصرف (وبخاصة علنًا) "بطرقٍ تتماشى مع روحِ المجتمعِ الإسلامي"، والمخالفة علنًا، تعد مُدَمِّرةً لتماسك المجتمع.

الدين والهوية:

الدين بالمنطقة (غالبًا) مكوِّن أساسي بـ"الهويةِ"؛ ففي استطلاع في ٦ دولٍ عربيةٍ تبين في ٤ منها: (الأردن والمغرب والسعودية والإمارات)، أنَّ "الهويةِ الإسلاميةِ" تتقدم على الهويتين: "الوطنيةِ"، و"العربيةِ"، وفي مصر ولبنان تقدمت "الوطنية"، ما يضفي بُعْدًا سياسيًّا على دور الدين، ويُعَدُّ صعود الحركاتِ الإسلامية مؤخرًا "دفاعيًّا"، ردةَ فعلٍ على تهديدٍ حقيقيٍّ (خارجي)، غربي خصوصًا. وتعود بداياتُ هذا النزوع لهزيمة ١٩٦٧؛ إذ كانت "صدمة نفسية كبيرة"، وعَدَّ الإسلاميون أحد أهم أسبابها: انتشارَ القوميةِ والعلمانية والابتعادَ عن الطريقِ المقدَّسِ، وعزَّزت أحداث لاحقة فكرةَ أنَّ وقوف الله مع المسلمين تجعل خسارتهم الحروب مستحيلةً، والمقصود: "الثورة الإيرانية" وانتصار "المجاهدين" بأفغانستان، وغيرها.

و"التركيز على المظاهر الخارجية" ثمرة اعتبار الدين "من سمات الهويةِ"، فللربط بينهما ربطًا وثيقًا، لا بدَّ من التعبير عنه بوضوح، ومن علاماته: ازديادُ المحجبات مقارنةً بخمسينيات وستينيات القرنِ العشرين. وينطبق هذا اجتماعيًّا على محاولاتٍ وضع قواعدَ إسلاميةٍ بالمجال العام. ومن "يتخلون عن الإسلام يُتَّهَمون" بخيانة "هويتهم وثقافتهم"، والملحدون عندما يؤكدون حقَّهم في الإلحاد يؤكدون: "حقهم في حرية التفكير والاعتقاد"، وهو حق للجميع. ويُعَدُّ جميعُ السعوديين مسلمين رسميًّا، ويُمنع

ممارسة ديانة أخرى هناك، وتُصوَّر المملكةُ على أنها بلد وَرِع وتقيٌّ. وزعزع استطلاع للرأي لمعهد جالوب الدولي (شمل ٥٧ دولةً) هذه المزاعم. قال ١٩٪ من المشاركين السعوديين: إنهم غير متدينين، ووصف ٥٪ منهم أنفسَهم بأنَّهم مقتنعون بالإلحاد، ونسبة من عرَّفوا أنفسهم بأنهم ملحدون كانت الأعلى بالاستطلاع. توضح الأرقام (إنْ صحَّتْ) أنَّ ١ من كلِّ ٢٠ ليس ملحدًا فحسب، وإنما مستعد للإعلان. و"لا يستطيع الملحدون تقبُّلَ ذلك" إذا "أرادوا التمسك بمبادئهم"، و"لا تستطيع المملكة قَبُولَ الإلحاد بدون تغيير الأساسات التي بُنيت عليها"، أي: بدون "تغيير سياسيٍّ جذريٍّ".

يقول غازي المغلوث أستاذُ الثقافةِ الإسلاميةِ بجامعة الأحساء لـ سعودي جازيت: "سيكون لقمع الملحدين" نتائجُ عكسيةٌ غالبًا، وسيؤدي لتصرف الشبابِ بعنف و"زيادة تعلقهم بالإلحاد"؛ لذا يجب محاورتهم. فالفوز بالقلوب أهم من احتلال المدن. نظرية أخرى، تبدو معقولةً أكثر: السبب طريقة تدريس الدين، ومواقف رجعية لكثير من رجاله.

ويعتقد الملحدُ السعوديُّ عمر هادي أنَّ النسبة ربما تكون أعلى من أرقام الاستطلاع، مع أنَّ موقف بعض المجاهرين ردة فعل لقيود اجتماعية، وأن بعضهم إذا انتقل للغرب فربما يعودون للإسلام، ويضيف: شكوكي تزداد بسبب طريقة تعليمنا. عليهم تدريس الدين بطريقة أكثر لباقة. "أنا أفهم المعضلة"، "ففور شروعهم في إصلاحه سيبدو الدين بشريًّا" و"سيفقد قداسته". ووفقًا لمقالةٍ بصحيفة الوطن، تُعَدُّ محاورات المبتَعثين للخارج مع أساتذتهم بالجامعات الأوربية عاملًا رئيسًا آخر قاد إلى "مستنقع الإلحاد المظلم"، وهذا نقد مبطَّن لبرنامج الملك عبد الله للمنح الدراسية. وانفتاحه "أثر في وجهاتِ النظرِ الدينيَّة لبعض الطلبة". يقول عمر: عندما تَكبرُ بالسعودية تتشرب فكرة أنَّ غير المسلمين أشرار مصيرهم الجحيم، وغير المسلم "يتربَّصُ بك، لكن عندما تذهب وتعيش معهم"، "تلاحظ أنهم ليسوا أشرارًا". هذا يدفعك للقول: "لمستُ الكثير من الكرم واللطف في هؤلاء الناس" ويصعب تصديق أن مصيرهم الجحيم.

وذكر فيل زوكرمان في: "دليل كامبردج للإلحاد" أنَّ: "الدوَلَ ذاتَ النسبةِ المرتفعةِ

من الملحدين" من أكثر الدول صحةً وغنًى. وبالمقارنة بين الترتيب العالمي فيما يخصُّ الدين، ومؤشر الأمم المتحدة للتنمية البشرية، تكون النتائج صادمةً.

- الدول الخمس والعشرونَ الأعلى ترتيبًا بالمؤشر (باستثناء إيرلندا) بها نسبة ملحدين مرتفعةً جدًّا.
- تضمنتِ الدول الخمسونَ الأدنى ترتيبًا نسبًا منخفضةً جدًّا من الملحدين.

وتفصيليًّا أكثر وجد "زوكرمان" أنَّ:

- الأربعون دولةً الأشد فقرًا (باستثناء فيتنام) متدينة أكثر.
- الدول الخمس والثلاثون الأعلى أمِّيَّةٍ بين الشباب، متدينةٌ أكثر.
- وفيات الرُّضَّع هي الأقل بالدول غير المتدينة؛ والأعلى بالدول المتدينة.
- الدول العشر ذات المستوى الأعلى في المساواة بين الجنسين "ملحدةٌ"، والدول التي فيها أقل مستويات المساواة "متدينة".
- الدول ذات المعدَّلات العالية من جرائم القتل "متدينة"، وتصل النسبة لأدنى درجاتها بالدول الأكثرَ علمانية.

ولا يدَّعي زوكرمان أنَّ الإلحاد سبب المنافع بالمجتمعات الأقل تدينًا، لكنه استنتج أنَّ المجتمع السليم يؤدِّي لانتشار الإلحاد، ويؤدي انعدام الأمن الاجتماعي لانتشار الإيمان بالله، بحلول ١٩٩٤ تحوُّل اللوم للفضائيات؛ وحذَّرتْ وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي الإيرانية من أنَّ برامجها جزءٍ من "خطةٍ شاملةٍ للقضاء على ديننا وقيمنا المقدسة"، ويُلقى اللوم على الإنترنت بزعم أن له قدرةً كبيرة على نشر الإلحاد. وهو "يُمكِّن الأفراد من التعبير عن أفكارهم علانيةً"، ومن التواصلِ "مع أفرادٍ لديهم العقلية ذاتها"؛ دون قيود حكومية.

والإنترنت من أسباب الانتشار، وأصحابه لا يرونه "السبب"، "وإنما مجرَّدُ وسيلة". ومحاربة الفكر الإلحادي عليه لن يعالجَ الظاهرة، وقد يؤدي لإثارة المزيد الفضول، ولن يسعى وراء المواد الإلحادية إلا من توافق أفكارهم؛ و"محاولات فرض

الرقابة" خشيةَ ألا "يستطيع الدين الفوز بالنقاش بالمنطق والدليل وحدهما". ومع التحذيرات، أقبل المسلمون على الإنترنت بسرعة؛ وبحلول ٢٠٠٠ أصبح لدى أغلب الحركات الإسلامية المعروفة ومجموعات وأفراد وجودٌ افتراضي، فذلك نوع من الدعوة، وكثيرون يعدُّونها واجبًا دينيًّا، وبعض أثارته فكرة أن يجمع الإنترنت يومًا مسلمي العالم في "أمة رقمية". بدأ الشكوكيون (أو المشككون) العرب بالظهور إبَّان تطوُّر مواقع التواصل، ويقول سلطان سعود القاسمي، (كاتب إماراتي بارز): قبل فيسبوك وتويتر، انتشر برنامج "بالتوك" خليجيًّا كالنار في الهشيم، كان "يقدم خدمة الدردشة بالصوت والصورة"؛ و"غرف دردشة في البرنامج كغرفة "الإنسانية" التي كان يشرف عليها كويتي، وغرفة "غير المتدينين"".

أحمد بن قريشان (ملحد إماراتي) كتب أن: "جميع الديانات تكذب" و"بإمكان العلمانية تحرير الناس". واليوم نحو مائة صفحة فيسبوك في عنوانها: "كلمة: ملحد"، و"عشرات الصفحات التي تستخدم عبارة الملحدين العرب" بالإنكليزية، ولبعضها آلاف المتابعين، ومجموعات مغلقة وخاصة. وخارج المنطقة، تمتلكُ "منظمات المسلمين السابقين" بأمريكا الشمالية وأوربا ونيوزيلاندا "مواقع إلكترونية"؛ ويملك ملحدون منفيون "مدوناتهم الخاصةَ". وبهذا شعر الملحدون العرب بأنهم "أقل عزلةً".

في مقابلة أجراها ويليم باور بصحيفة Your Middle East مع ملحد سعودي، قال الملحد: إنَّ فيسبوك وتويتر "جعلا العثور على أناسٍ يمكن النقاش معهم، فضلًا عمن لديهم اهتمامٌ بالقيم العلمانية، أمرًا سهلًا"، مضيفًا أنَّه صُدِمَ بمقابلة أشخاص كتموا إلحادهم لعقود؛ لأنهم لم يعثروا على أشخاص يشاطرونهم فكرهم سوى مؤخرًا، "وجدوا مجموعاتِ تواصلٍ اجتماعيٍّ" يستطيعون عبرها "مناقشة أفكارهم" علنًا. ووصفت أسوشييتد برس حالة نموذجية مصرية بقولها: "صرَّح مهندس مصري وُلِدَ مسلمًا" (٤٠ عامًا) بأنه اعتنق سرًّا الإلحاد طويلًا، والتغييرات الجذرية التي دعت لها الثورة شجعته على البحث عن "آخرين يؤمنون بما يؤمن"، يقول: "قبل الثورة كنت

أعيش في عزلةٍ كاملةٍ"، والآن نملك جرأة غير مسبوقة.

يوضح التقرير عبر حالة المهندس "الحدود التي يحق للملحد الوصول إليها". وترى مجلة إيكونوميست أن مواقع التواصل توفر للملحدين قدرة تأثير كبيرة، وشهرة تعرضهم للخطر، فأغلب النشيطين واجهوا مشكلات جمَّةً. وتعتقد المجلة أنَّ السبب الرئيس لذلك: غياب التسامح، وتضيف: "في خمسينياتِ وستينياتِ القرنِ العشرين سادت العلمانية والتسامح الكثيرَ من الدولِ الإسلامية"، لكن الدين اليوم "طغى على الحياة العامة والحياة السياسية". سامي زبيدة الباحث بكلية لندن بيرك بيك يتحدث عن تزايد حدة الاستقطاب بهذه الدول، فالتدين والإلحاد فهناك يزيدان معًا.

وشهدت مواقع التواصل منذ ٢٠١٠ نشاطًا محمومًا من سلفيين وإسلاميين متطرفين تعاملوا مع صفحات الملحدين بالاختراق والتدمير، والإبلاغ عنها. واستطاعت شبكة "الملحدين العرب" النجاةَ؛ لتصبح إحدى أكثر شبكات الملحدين شهرةً. ولجأ ملحدون مؤخرًا للفيديو، و"قناة الملحدين العرب" على يوتيوب (Arab Atheist Broadcasting) تقدم برنامج نقاش (ساعتين كلَّ أسبوعين). ومعدل المشاهدة ٣٠٠٠، ٤٠٠٠. وهناك برنامجُ حواري (البط الأسود) يقدمه ملحد مصري وهدفه: التشجيعُ "على الظهور للعلنِ".

وبالأردن مجتمعٌ ملحدين صغير يتواصلون عبر مجموعة بفيسبوك (أُسِّسَتْ ٢٠١٣)، وكان فيها ٣٠ عضوًا في عام أصبحوا ١٠٠ (بين ١٦ و٤٤ عامًا، نحو ٤٠٪ إناث). يقول مدير المجموعة محمد خضرة: إن بعض أعضائها "ملحدون منذ سنوات" حكوميًّا، يُعَدُّ الأردن أقل تشددًا من السعودية، والمرتد يُعاقَبُ بالحرمان من الحقوق المدنية أو السِّجن، لكنَّ المجتمع والأسرة هما المشكلة الرئيسة، فالإلحاد، كالرذيلة، يُعَدُّ "جريمةَ شرف" في بعض العائلات، وُيعاقِبُه الأقارب بالموت، وبخاصةً إذا كان الملحد أنثى. ويضيف: خسرتُ خطيبتي، تقبلت في البداية ثم قالت: "أنت لست مسلمًا؛ لذا فلا بد أنْ تكون أخلاقك سيئة"، وهذه نقطة خلاف رئيسة، يُنظَرُ لغير المسلم على أنه

سيِّئ الخُلُق، أو أنَّ الملحدين يعيشون كالبهائم؛ هذه نظرتهم، وسُئلت مراتٍ: "لم لا أنام مع والدتي؟".

يُعَدُّ تقديم الدعم إحدى مهمات المجموعة، إضافة لمناقشة الإسلام والإسلاميين عمومًا، يضيف خضرة: "الإسلام ليس تهديدًا" وأنا "لا أحارب الإسلام بل أحارب الإسلاميين (أي: الإسلام السياسي)"، ومع اختلافي مع المسلمين، "ليس عندي مشكلة مع إيمانهم". الإسلام وأيِّ ديانة أخرى يمكنه الإضرار بأي مجتمع؛ والتهديد الرئيس: الإسلام المتشدد. ووقوع ترسانةٍ نوويةٍ بيد حاكم متشدد دينيًّا يكفي لإثبات ذلك. و"تُعَدُّ فكرة أنَّ الله يريد أمة تمثِّلُه ويأمرها بقتل وتدمير باقي البشرية، هي أخطر ما اشتملت عليه العقيدة الإسلامية، وهذه الفكرة هي ما يعمل لأجلها الإسلاميون اليوم". "مكتبةُ الملحدين العرب" صفحة فيسبوك تتيح التحميل المجاني لكتب بينها ترجمات عربية لمؤلفات: باروش سبينوزا[١]، وستيفن هوكنغ[٢]، وهانا

---

(١) باروخ اسبينوزا (أو بنديكتوس) (١٦٣٢ – ٧٧) فيلسوف هولندي يهودي، من أسرة برتغالية من: "اليهود المتخفين" (يهود أرغموا على اعتناق المسيحية، فأظهروا ذلك وظلوا يهودًا في السر). طُرد من الطائفة اليهودية بسبب كتاباته. تناول فلسفته بقدر من التوسع المفكر الكبير الدكتور عبد الوهاب المسيري في موسوعته: "اليهود واليهودية والصهيونية" وعدَّه أحد الملحدين الكبار.

(٢) ستفين هوكينغ ولد ستيفن إدوارد هوكينغ (٨ يناير ١٩٤٢ – ١٤ مارس ٢٠١٨)، فيزيائي بريطاني. كان هوكينغ يعاني من مرض التصلب الجانبي الضموري، لكنه أصبح واحدًا من أكثر علماء عصره شهرة. أبرز إنجازات هوكينغ: "نظرية الثقوب السوداء"، كما عُرف بقدرته الفريدة على تصور الحلول العلمية بدون حسابات أو تجارب. لكن ربما كانت "نظرية كل شيء"، التي ترجح أن الكون يتطور وفقًا لقوانين محددة، هي أكثر ما جذب أنظار العالم إليه. وقال هوكينغ: "إن هذه القوانين يمكن أن تقدم أجوبة للأسئلة المتعلقة بنشوء الكون وإلى أين يتجه وهل له نهاية. وكيف سينتهي؟ وإذا وجدنا الإجابات لهذه الأسئلة سيصبح لدينا تصور عن عقل الإله". التحق بجامعة أكسفورد لدراسة العلوم الطبيعية في ١٩٥٩، وفي ١٩٦٢ حصل على درجة أكاديمية في الفيزياء من أكسفورد، ثم انتقل إلى كامبريدج لإكمال دراسته في علم الكونيات (الكوزمولوجيا).

(https://www.bbc.com/arabic/science-and-tech-59927857)

آرنت[١]، وبيرنارد راسل[٢]، وكارل ساغان وريتشارد دوكنز، والملحد العراقي المولد بسام ترجم كتاب دوكنز المشهور: "وَهْمُ الله" ونشره رقميًّا، وتحوي المكتبة كتبًا لمؤلفين عرب بينهم العلماني الجزائري محمد أركون والفيلسوف المصري مراد وهبة وفرج فودة العدو اللدود للإسلاميين المصريين. بعض الكتب ألَّفها أجانب، وأخرى قديمة غير متاحة ورقيًّا، كُتبت بأزمنة أكثرَ تحررًا، عمر هادي، يعتقد أنَّ هذا سيكون له بالغ الأثر، وبعد وفاة فرج فودة بسنوات، كتاباته حية على الإنترنت، وعلى تويتر أقواله تقتبس "مرارًا وتكرارًا".

---

(١) حنة آرنت، (١٥ أكتوبر ١٩٠٦ – ٤ ديسمبر ١٩٧٥)، منظرة سياسية علمانية ألمانية-أمريكية. ولدت عام ١٩٠٦، وتعد من أبرز المفكرين تأثيرًا في القرن ٢٠. اشتهرت بعلاقتها مع الفيلسوف الوجودي مارتن هايدغر، وبنقلها محاكمة المسؤول النازي أدولف أيخمان في القدس. وُلدت في هانوفر بألمانيا، لعائلة يهودية الأصل. انتقلت إلى برلين عام ١٩٢٢ لدراسة الكلاسيكيات الفكرية، وأخذت دروسًا في اللغة اللاتينية واليونانية، كما تعمقت في دراسة اللاهوت المسيحي. التحقت عام ١٩٢٤ بجامعة ماربورغ، وبدأت دراسة الفلسفة تحت إشراف الفيلسوف مارتن هايدغر، وسرعان ما تطور الأمر بينهما إلى علاقة عاطفية سرية، لم تدم طويلًا بسبب ضغوط إلفرايد بيتري زوجة هايدغر التي كانت كاثوليكية محافظة. وصول هتلر إلى السلطة كان له تأثير بالغ الأهمية على حياتها الفكرية، وعلى توجهاتها في التنظير للفلسفة السياسية، فقررت الفرار ومغادرة ألمانيا إلى باريس سنة ١٩٣٣، ثم إلى نيويورك وحصلت على الجنسية الأميركية عام ١٩٥٠، وأصبحت أستاذة للفلسفة السياسية، وألقت محاضرات في عدد من الجامعات الأمريكية.

موقع الجزيرة نت، الرابط:

https://url-shortener.me/DQ3L

(٢) المقصود: بيرتراند رسل (١٨٧٢، ١٩٧٠). فيلسوف بريطاني. يصعب العثور على حقل في الفلسفة لم يسهم فيه.

الفصل الثاني: "الإلحاد في التاريخ العربي"

ليس في العربية مرادفٌ دقيقٌ لكلمة "atheist" (ملحد)، فالكلمة الإنكليزية مشتقة من كلمتي: "a" (غير) و"theos" (إله) في الإغريقية القديمة، وتعني عدم الاعتقاد بوجود الله، والمصطلحات العربية الشائع استخدامها اليوم كمصطلحي: "ملحد" و"الإلحاد" لها دلالاتٌ أكثر فيما يخص الانحراف عن الإيمان، وتشمل المرتدين والمهرطقين، ما يجعل البحثَ في تاريخ الإلحاد العربي صعبًا، لكن هذا يوحي بأنَّ منتقِدي الدِّين من العرب في الماضي لم يكن يعنيهم الإيمان بالله أو عدمه فقط، وبالتاريخ العربي تجاوز الخوف من الملحدين الحدَّ مقارنةً بعددهم حينها.

ويُعْتَقَدُ أنَّ أقدمَ عملٍ ذي صلة: "الردُّ على الملحد" للقاسمِ بنِ ابراهيم، (عالم زيدي، القرن التاسع الميلادي)، وكان حريصًا على أنْ يسلك المسلمون الطريق القويم، فألَّف كتابين في الموضوع: "الإثبات الصغير" و"الإثبات الكبير" يُعلم فيهما قُرَّاءَهُ "الردَّ على المهرطقين والملحدين". كتبت "سارة سترومسا"[1] بكتابها: "المفكرون الأحرار في العصور الإسلامية الوسطى": "من الطبيعيِّ أن نستدلَّ من كلام القاسم على أنَّ المهرطقين والملحدين المقصودين هنا هم من أنكروا -أو في الأقل- شكَّكوا بوجود الله"، والقاسم كان قلقًا من قدرتهم على الإقناع، وخصومه الفعليُّون لم يكونوا أفرادًا، بل فئات: "كالمهرطقين والملحدين والماديين والمشكِّكين"، دون تمييز واضح.

و"رغم أنَّ المفكرين الأحرار كانوا موجودين فعلًا في العالم الإسلامي في العصور الوسطى"، لكن "سترومسا" تتساءل: أكان وصْفُهم بالملحدين دقيقًا؟ الأرجح "أن للمفكرين الأحرارِ في ذلك العصر أولوياتٍ مختلفةً للعمل، لم يكنِ العِلم قادرًا حينها على تقديم أفكارٍ بديلة عن أصل الكون أو تطوُّر الأنواع"، فلم يكن منطقيًّا التشكيكُ بوجود الخالق؛ "فكان الطَّعن بالأنبياء والوحيِ" آنذاك "ملائمًا أكثر، وهذا ما فعلوه".

---

(١) ساره سترومسا، أستاذة في الجامعةِ العبريّةِ في القدس، وكتابها: "مفكرو العصرِ الإسلامي الوسيطِ الأحرار: ابنُ الرّاوندي وأبو بكرِ الرّازي، وتأثيرُهُم في الفكرِ الإسلاميّ"، (Brill، ١٩٩٩)

"تقومُ الشهادتان على عنصرين أساسيين: رفضٌ قطعيٌّ للشركِ بالله، لا هوادةَ فيهِ (لا إله إلا الله)، وإقرارٌ بأنَّ (محمدًا هو رسول الله) خاتَمُ الأنبياءِ "للبشرية، والإسلام يعترف بأنبياء اليهودية والمسيحية، ولا يعترف اليهود والمسيحيون "بمحمدٍ نبيًّا". تقول سترومسا: في سعيهم للطعن في النبوة "اتخذ المفكرون الأحرار عدة اتجاهات؛ فمن الناحية النظرية، حاولوا إثبات أنَّ النبوة -فكرةً- أمرٌ لا يقبله العقل"، "ومن الناحية الجدلية" سعوا لإظهارِ "كلِّ من ادعى النبوةَ على مدى التاريخ بمظهر المتلاعب المحتال". ويرتبط الإسلام بالنبوة أكثر من المسيحية واليهودية بكثير، و"ظهور المفكرين الأحرار الرافضين لفكرة النبوة" يدل على موقعها المركزي في الفكر الإسلامي. وأُطلِقت تسميةُ ملحد على شخصيتين بارزتين في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين: ابن الراوندي وأبو بكرٍ الرازيُّ وكلاهما فارسي. ولخَّص الفيلسوف الوجوديُّ المصريُّ عبد الرحمن بدوي، وجهتي نظرهما بأنها: "عقلانية إنكار النبوة"، وفرضيتهما المشتركة أنَّ: المنطق (أو العقل) كافٍ لتمييز الخير من الشر، ولا حاجة للنبوات. الراوندي وصف القرآن بأنه "كلامُ مخلوقٍ لا يعرف الحكمة"، وأنه أنكر معجزاتِ: إبراهيم ومحمد والمسيحِ، وعدَّها مجرَّد حيلٍ؛ أما انتقاداته للنبوة والوحي فاختفت، لكنها كانت ظهرت بعناوين كتبه، ودارت حولَ: "محتالي النبوة" و"دحض الأديان"، ومع أنَّ اهتمامه انصب على الإسلام، لكنه هاجم المسيحيةَ واليهودية والزرادشتية والمانوية، ويبدو أنه ناقش فكرةَ أنْ لو كان الله حكيمًا؛ ما كان ليخُصَّ أناسًا بالنبوة ثمَّ يمكِّنهم من التأثير في الآخرين، ثم يحرِّض أتباعَهم للاقتتال فيما بينهم.

كان الرازيُّ على ما يبدو مؤمنًا بالله حكيمًا رحيمًا، لكنَّ صراعه كان مع فكرة النبوة والأديان السماوية والتعصب والاستبداد الناجم عنها، فهو يرى أنَّ الإله الحكيم يسيِّر الكون بطريقة مختلفة. ونُقِل عنه قولُه: "ينبغي أن يكون السلوك الأنسب للحكيم هو الحكمة وللرحيمِ الرحمةُ، وذلك بأنْ يلهم جميع عباده معرفة كلِّ ما ينفعهم ويضرهم في الدنيا وفي الآخرة؛ لا أنْ يفضِّلَ بعضَهم على بعض، فيكون بينهم تنافسٌ وخلافٌ يكون

فيه هلاكهم". "كان أتباع الأديان السماوية قد تعلموا دينهم باتباع سلطة قادتهم، فيرفضون عامل الملاحظة العقلية، والاستفسار عن العقائد الأساسية للدين"، و"يوسمُ بالكفر من تجرأ على مخالفة تلك التقاليد".

كان من المفكرين الأحرار بالعهد العباسي الشاعرُ الكفيفُ أبو العلاء المعرّي (٩٧٣، ١٠٥٧م)، الذي لم تترك قصائده (كما يقول ر. أ. نيكلسون) جانبًا من جوانب العصر إلا تطرَّقت إليه، كان المعرِّي موحدًا، وبحسب نيكلسون، كان ميَّالًا للاعتقاد بأن كلَّ شيءٍ مُسيَّر لمصيرٍ حتميٍّ "بواسطة كائن كليِّ القدرة، فيه من الأسرار ما لا طاقة لمخلوقٍ بسَبْرِ أغوارها ولا سبيل للنجاة من قدرته التي فاقت كل شيء". وُلد المعري بسوريا، وتأثرت أفكاره بمدة قضاها ببغداد، وكان بها "من كل عقيدةٍ وطائفةٍ ومذهبٍ". كانت آراؤه تخرجه من الملَّة بوضوح، وظهر هذا في شعره:

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ... ويهود حارت والمجوس مضللهْ

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا ... دين وآخر ديِّنٌ لا عقل لهْ

ويسخر من الحج لمكةَ، والطواف بالكعبة:

سَبِّح وَصَلِّ وَطُف بِمَكَّةَ زائِرًا ... سَبعينَ لا سَبعًا فَلَستَ بِناسِكِ

جهِلَ الدِيانَةَ مَن إِذا عَرَضَت لَهُ ... أَطماعُهُ لم يُلفَ بِالمتَماسِكِ

ويقول في موضعٍ آخرَ:

إن الشرائع ألقت بيننا إِحَنًا ... وأودعتنا أفانين العداوات

ومع سلبيته، دعا للعقلانية والسعي وراء الحقيقة بوصف ذلك مرشدًا أخلاقيًّا، قد يكون محظوظًا، فلو نشر اليوم على فيسبوك ما كان يكتبه آنذاك لواجَه مأزقًا حقيقيًا، بسبب السلطات أو الإسلاميين. كتبَ: "رسالة الغفران" مصورًا السماء كأنها "صالون أدبيٌّ بوهيمي". ويعلِّق نيكلسون عليه قائلًا: ككثير من حكماء المشرق "ممَّن يلجؤون إلى التصنع والتقية كفنٍّ جميل". أنهى المعرِّي مسيرته يحظى باحترام كبير، وبخاصة

بمسقط رأسه، ووصفه شاعرٌ فارسيٌّ زاره بأنّه "عين القوم".

عمر الخيَّام، عاش قريبًا من عصر المعري؛ وكان عالم رياضيات وفلك، ومع أنه فارسيٌّ، لكن شهرته عربيًّا كانت توازي شهرته في الغرب، وغالبًا كان الملحدون العربُ يَستشهِدون بكلامه، ومع شهرته عالمًا، اقترن اسمه بالرباعيَّات، التي يتغنى فيها بالخمر ويسخر من المعتقدات الدِّينية أحيانًا؛ ولذا، اكتسب الخيَّام سمعته بصفته ملحدًا.

في كتابه: "الملحد الجوال"، وصفه كريستوفر هيتشنز قائلًا: "يُشَكِّكُ الخيَّامُ صراحةً بفكرة أن الله يتجلَّى بذاته لشخصٍ خلافَ بقيَّة الناس"، و"منِ ادَّعَوا تأويلَ الوحي كان جُلُّ همِّهم استخدامُ ادِّعاءاتهم لتحقيق مكاسبهم وفرض سلطانهم على الآخرين". وثمة مشكلات كثيرة في آرائه الدِّينيةُ، عده بعضهم صوفيًّا لا ملحدًا، والرباعيات تثير الاهتمام كانعكاس لأفكار كانت سائدة، وعُدَّت مواضيعَ شعريةً مشروعةً حينها، والحال مختلف اليومَ، ففي ٢٠١٣ حُكِمَ على عازف البيانو الملحد التركي الشهير فاضل ساي بالسَّجن لاتهامه بالكفر لنشْرِهِ تغريدات بينها أبياتٌ للخيَّام:

تقول إن أنهار النبيذ تتدفق في الجنة
أجنةٌ هي أم خمارة؟
وتقول: إن حوريتين تنتظران المؤمنين؟
أَجَنَّةٌ هي أم بيت للدعارة؟

الإلحاد في العصر الحديث:

حديثًا، اتضحت أشكال الإلحاد بالعالم الإسلامي، ويقول ساميولي شيلكي: أواخر القرن التاسع عشر وبدايات العشرين "بدأتْ موجةٌ جديدةٌ من العِداء للدّين تحظى بالقبول في أنحاء مختلفةٍ من العالم الإسلامي"، و"جاءت الدورة الثانية للإلحاد في العالم الإسلامي في ظروفٍ مختلفةٍ كليًّا"، "في ظل توسع الإمبراطورية الأوربية"، التي "ألقت بظلال الشكِّ على التقاليد المتَّبعة للمعرفة والتنظيم الاجتماعي والدين". و"ظهرت حرية الفكر والحلقات المناوئة للكهنوتية أولَ الأمرِ في إيرانَ والهندِ والإمبراطوريةِ

العثمانيةِ". الأكثر إسهامًا كان "المسيحيون والعربُ المسلمون" بالدولة العثمانيةِ، و"ظهرت النَّزَعاتُ القوميَّةُ المعاديةُ لرجال الدِّين، وللدين نفسه على نطاق أوسع من الحداثة العلمانية". وشيلكي يَستشهِد بدليلٍ من إيران (القرن التاسع عشر) على أنَّ الإلحاد المعاصر بين المسلمين ليس نسخة غربية معدَّلة، و"استمد جذوره من التقاليد الأصلية (المحلية) أيضًا" التي "تتصف بالهرطقة".

كان إسماعيل أدهم مِنْ أعتى الملحدين المصريِّين، كتب سنة ١٩٣٦ كتابًا يشكِّك فيه بمصداقية "السنة"، وأرسلَ نسخًا منه لعلماء الأزهر، ما أثار غضب شيخ الأزهر مصطفى المراغي فتقدَّم بشكوى حُظِرَ بعدها الكتابُ، ثم ألَّفَ كتابه: "لماذا أنا ملحد؟"، فأثار جدلًا أكبر، وقدم "نظرية التطور" على أنها عقيدة جديدة تحلُّ محلَّ العقيدة الدِّينية، يقول: "خرجتُ عن الأديان، وتخليتُ عن كل المعتقدات، وآمنت بالعلم وحده وبالمنطق العلميِّ". تبيَّن لاحقًا أنّهَ لم يكن ملحدًا فحسبُ، بل حالمًا، وربما لخوفه من ألَّا تؤخذَ أعماله بجدية دون مؤهلاتٍ جامعيةٍ عاليةٍ، جمع قائمةً متخيَّلةً من المؤهلات المثيرة للإعجاب، وكتبَ على غلاف أحد كتبه (وهو في الخامسة والعشرين): "الدكتور ليت (هون)، دكتوراه في الفلسفة والعلوم (موسكو)، ونائب رئيس المعهد الروسي السوفييتي للدراسات الإسلامية، وعضو الأكاديمية السوفييتية الروسية للعلوم، وأستاذ سابق في الرياضيات العالية في جامعة سان بطرسبرج، وأستاذ في التاريخ الإسلامي في كلية التاريخ، إسطنبول".

ادَّعى أدهم أنَّه كتب أيضًا سيرةً للنبيِّ (بالألمانية)، وثلاثةَ مجلَّداتٍ تاريخ إسلاميٍّ بالتركية، ومجلَّدي رياضيات وفيزياء (بالألمانية والروسية)، وثلاثة مجلداتٍ عن "النسبية" (بالألمانية والروسية)، ولم يتضح زيفُ هذه الادعاءاتِ حتى ١٩٧٢ عندما كشفت "مجلة الأدب العربي" أنه: لم يحصل على "أيِّ شهادةِ دكتوراه، ولم يكن يومًا عضوًا في أكاديمية العلومِ، ولم ينشر أيَّ كتابٍ أو مقال، لا بالروسية ولا بالألمانية ولا حتى الفرنسية، ولا صحةَ لما قيل عن تأليفه مجلَّدين باللغة التركية بعنوان "تاريخ

الإسلام"، كما ولم تكن هنالك أي علاقةٍ صداقةٍ بينه وبين المستشرق الروسيِّ "بارثولد" الذي توفي سنة ١٩٣٠م، أي: قبل عامٍ من ادعاء أدهم بأنه ذهب إلى روسيا، ولم يتلقَّ أي إطراءٍ من المستشرق الروسي "كازيميرسكي"؛ لأنه لم يكن هنالك شخصٌ بهذا الاسم أصلًا". ويُعتقد أن أدهم لم يغادر مصر أبدًا، وعُثِر عليه منتحرًا (١٩٤٠) وهو في التاسعة والعشرين.

يُعَدُّ عبد الرحمن بدوي (ت١٩١٧-٢٠٠٢م) أول فيلسوفٍ وجوديٍّ مصريٍّ؛ وأكثرُ ما يستحق الذكرَ كتابُه: "من تاريخ الإلحاد في الإسلام"، ودافع آخر عمره عن القرآن والنبيِّ ضدَّ هجمات المستشرقين.

عبد الله القاسمي (ت١٩٠٧-١٩٩٦م)[١] وُصِفَ وصفًا غير ملائمٍ بأنَّه "عرَّابُ الإلحاد في الخليج العربيِّ"، ومن أقواله: "احتلال الآلهة لعقولنا هو أسوأُ أنواع الاحتلال"، ويرددها الملحدون لليوم، وُلد القاسمي في أسرةٍ محافظةٍ بنجدٍ (السعودية)، انكبَّ "على كتب الفلسفة"، ثم كتب "كتبًا غريبة عن الحداثة، وعندما حاول شيوخ السعودية إسكاتَه"، اشتكى لسيِّد قطب فدافع أولًا "عن حقِّ القاسميِّ في الكلام"، لكنه لاحقًا اتهمه "بمحاولة تدمير الإسلام"، كان "قطب محقًّا"، ولاحقًا" ارتدَّ "القاسميُّ"". "لم يُكتبِ النَّجاحُ لمحاولة القاسميِّ تأسيسَ حركةٍ إلحاديةٍ سياسيةٍ نتيجةَ وقوف جمال عبد الناصر بوجه ذلك وسجْنه مراتٍ عدة".

لاحقًا أقامَ بلبنان "وكان يُعامَل كشخصيةٍ اعتباريةٍ هامةٍ"، حتى التقى "بالشيخ ابنِ عقيل الزاهريِّ"[٢] بالقاهرة، "ودار بينهما جدلٌ طويل"، "كان القاسميُّ يقتبس من كتب: إشيمانويل كانط وجون ستيوارت ميل حرفيًّا، وكان يغيِّر موضوعَ النقاش في كلِّ مرةٍ يستشهد فيها ابنُ عقيل بآراءِ الفلاسفة العلمانيين "الكفار" أنفسِهم التي تنتقد هذين الفيلسوفين"، "وفي كلِّ مرة يوشك فيها ابن عقيل على إقناعه، كان القاسميُّ يلتفت إلى

(١) المقصود عبد الله القصيمي.

(٢) المقصود أبو عقيل الظاهري.

موضوعٍ آخرَ يمكنه فيه إثبات وجهة نظره". و"كان وحشًا متغطرسًا طوالَ حياته، ولم يتبْ أبدًا".

القاسميُّ والبدوي استطاعا التعبير عن آرائهما بمطبوعات، لكن الجدلَ العربيَّ في الدِّين، عمومًا كان الاهتمام بدوره المجتمعي والسياسي يفوق الاهتمام بوجود الله، والسبب؛ خلفيات تاريخية: انحسار الإمبراطورية العثمانية، والهيمنة الأوربية، وصعود القومية، والاستقلال.

أوربا -خصوصًا- أصبحت موضع إعجابٍ ومصدرَ خطرٍ في آنٍ معًا، كان المسلمون منقسمين، فمنهم من رأى الإسلام جزءًا من المشكلة، فسَعَوا لتقليص دوره، ورأى الآخرون وجوب تجديده وجعله جزءًا من الحلِّ، وبرز من هؤلاء جمال الدِّين الأفغاني (ت١٨٣٩-١٨٩٧م) ومحمد عبده (ت١٨٤٩-١٩٠٥م). حاول الأفغانيُّ إيجادَ سبيل لمواكبة العالم المتحضِّر بدون فِقدان الوفاء للذات، واقترح منهجين للعمل، وصفهما حليم بركات بالتناقض: "العودة إلى المصادر الأصلية للإسلام، واعتمادُ الأفكار والتقاليد الليبرالية الأوربية"، وضمن ذلك العلوم الغربية والحكمِ الدستوريِّ. والأفغانيُّ -مع حماسته للعلم- انتقد الداروينية.

وكان عبد الرحمن الكواكبيُّ (ت١٨٤٩-١٩٠٢م) مِنْ أوائل المطالبين بفصل الدِّين عن الدولة، فدعا للعلمانية ولحكوماتٍ قوميةٍ تستند لمبادئ الديمقراطية والاشتراكية والتسامح والتفكير وتحكيمِ المنطقِ، واعتبرَ الاشتراكيةَ سبيلَ القضاء على الاستبداد، واتَّهم المتدينين المقلِّدين بمحاولة السيطرة "على المؤمنين السُّذَّج".

وألغى أتاتورك العلمانيُّ المتشدِّدُ "الخلافةَ" (١٩٢٤)، وفي ١٩٢٥ تسبَّبَت كتابات علي عبد الرازق، (شيخ أزهري) بجدلٍ واسعٍ بكتابه: "الإسلامُ وأصول الحكم"، وادَّعى فيه أنَّ الإسلام لم يحدِّد نمطًا للحكم؛ ومن ثَم؛ فلا مفاجأة أنْ ركِّزتِ النقاشاتُ الدينية على القضايا المهمة عمليًّا وآنيًّا أكثر من "وجود الله". وأنجب القرن العشرون مفكرين كثيرين مالوا للعلمانية؛ كطه حسين، ونجيب محفوظ، أمَّا عدد الملحدين (سرًّا

أو علانية) فلا يمكن الجزم به.

كان للماركسية أتباعٌ عرب كُثرٌ بعد الحرب العالميَّة الثانية، رافقتها أفكارٌ علمانية طغى عليها لاحقًا صعودُ الإسلام السياسيِّ، ومال النَّاس للتَّعبير غير المباشر عن إلحادهم بنقاشاتٍ في الوجوديَّة مثلًا، والجوُّ في ذروةِ اليساريةِ العربيةِ كان مُهيَّأً أكثرَ للتشكيك بالأديان من الآن.

بدرة (ناشطة نسائية ولاأدرية لبنانية) تتذكرُ حالاتٍ لبنانية وسورية؛ "حيث لم يكنِ الإلحاد في عزلةٍ، بل في مجتمعاتٍ" وتضيف: لم أكنْ جزءًا من هذه المجموعات، وبانتقالي لبيروتَ اكتشفتُ عالمًا موازيًا وجيلًا ينتمي لهذه الخلفية ممن نشؤوا "ضمن هذه المجموعات الشبابية اليساريَّة، وتربوا على هذه القيم"، وخصوصًا: "الحركة الوطنية اللبنانية" وضمت أحزاب: الاشتراكي (كمال جنبلاط) والقومي السوري الاجتماعي، والشيوعيين. و"الإلحاد، وإنْ لم يتمَّ التعامل معه كموضوع بحدِّ ذاته"، لكن "المثقفين الذين نشطوا إبان الحرب الأهلية كانوا يتبنَّون الفكر العلماني، ويحرضون ضدَّ الأديان كثيرًا. وكانت الحياةُ الثقافيةُ ببيروت تزخرُ بالأمثلة والإشارات إلى الوجودية والعبثيَّة"، وبخاصة "المسرحُ التجريبيُّ في ستينيات القرن العشرين، ثمَّ خلال الحرب الأهلية"، "ويصوِّرُ أدبُ الحربِ الأهليةِ اللبنانيّةِ الكثيرَ مِنَ الآراء الإلحادية".

خمسينيات وستينيات القرن العشرين، سادها تفاؤلٌ كبيرٌ، فكان التديُّنُ يتراجع بين "ذوي الثقافة العالية"، بالمنطقة، وهذا تغيَّر لاحقًا بصعود الإسلاميين وانهيار الشُّيوعيَّة، مع ذلك "كان "شيلكي" يرفض إلى حدٍّ ما سعيَ الماركسية لمواجهة الدِّين؛ فقد كانت الآراء الإلحاديَّة"، وإنْ أُعلنت "تعكس غرورَ النخبة أكثرَ مِنِ اتِّخاذِها شكل العدائية البغيضة لرجال الدِّين في أوائل القرن العشرين". عمومًا، نادرًا ما روَّجَ الشيوعيون والاشتراكيون للإلحاد علنًا بالدُّول المسلمة، وعادةً، "كانوا يحاولون مواجهة الدِّعاية المناهضة للشيوعيَّة بقولهم: إنَّ الإسلام" "يوافقُ الاشتراكية تمامًا." قد يكون هذا تكتيكًا لتجنب المواجهة، لكن شيكلي يراه منسجمًا مع معتقدات معظم شيوعيِّي العالم الإسلامي.

كانت اليمن الجنوبي النموذجَ الوحيدَ للحكم الماركسيِّ اللينينيِّ بالمنطقة. وكانت حكومتها تطمح لبناء مجتمعٍ "عقلانيٍّ اشتراكي"، ووجدت نفسها مضطرةً لمواجهة مسألة التعامل مع الإسلام، فاتخذت إجراءاتٍ صارمةً، وعنيفة أحيانًا، ضدَّ المؤسسة الدِّينية؛ كتأميم الأوقاف، وتوظيف رجال الدِّين لدى الدولة، والسيطرة على المؤسسات الدِّينية، انتهج النظامُ القائمُ نهجًا معقدًا، بمشورة سوفييتية على ما يبدو، ويقال: إنَّ اللجنة المركزية للحزب الوحدويِّ الاشتراكيِّ بألمانيا الشرقية أوصتِ النظامَ اليمنيَّ بالآتي: "الدِّين يُستعمل كسلاح ضدَّكم، فلما لا تستعملون السلاح ذاته ضدَّ أعدائكم؟ لماذا تتخلَّون عن المبادرة لحساب الرجعيين والانتهازيين؟ لم لا تكون المبادرة للتقدميين؟ لم لا تقولون: إننا ضدَّ الرأسماليَّة الاستغلاليَّة؟" وقولوا: "إن سيدنا محمدًا كان ضدَّ الرأسمالية الاستغلالية؟". دفع ذلك الحكومةَ لترويج إسلام اشتراكيٍّ يُحتفَلُ فيه بميلاد "لينين" مع احتفالات دينية تقليدية، الإسلام الاشتراكيُّ يشبه حركة "لاهوت التحرير" بأمريكا اللاتينية.

وفي دراسة عن التعايش الهشِّ والمضطرب بين الإسلام والدولة باليمن الجنوبي، قال نورمان سيجار: "إنَّ الاشتراكيين اليمنيين تعاملوا مع الإسلام كظاهرةٍ اجتماعيةٍ اقتصاديةٍ معنيةٍ بعالمنا فقط"، و"تجاهلوا -أو ربَّما همَّشوا- الجوانب الأُخرى من الإيمان".

العلمانية الجديدة:

غسان عبد الله استعرض أعمال مفكرين علمانيين بمقالة: "العلمانية الجديدة في العالم العربي"(١٩٩٩م)، و أيٌّ منهم لم يوصف بالملحد، وغسان يعتقد أن معظمهم ملحدون أو منكرون لوجود الله في الأقل، فكثيرٌ منهم أقرَّ بذلك سرًّا، ويضيف: "نقدَ الإسلام في العالم العربي بالكتابة ليس قضيةً سهلةً ولا آمنة"، و"عندما نقرأ ما يكتبه العقلانيون باللغة العربية فإننا نطوِّر فكرة عمَّا كان يقصده هؤلاء الكُتَّاب عندما يستخدمون أساليبَ محددةً للتعبير عن أفكارهم؛ وبالتالي يمكننا استبصارُ مواقفهمُ التي

لا يجرؤون على البوحِ بها صراحةً".

ممن تناولهم المقالُ: محمد شحرور؛ (سوري)، نشر كتابًا (١٩٩٠) عن القرآن. اتخذ موقفًا مناهضًا للإسلام، وسعيًا منه للتوفيق بين الإسلام والنظرة العقلانية؛ كانت رؤيته للشريعة أنَّ الحكمَ باسمِ اللهِ كذبةٌ كبيرةٌ تستغلها السلطة، ومع انتقاداته المتكررة لطريقة ممارسة الإسلام الآن، لكنه ظلَّ مترددًا في نبذ الدِّين، وقبوله به بدا خضوعًا للواقع السياسيِّ لا خضوعًا لله. يقول شحرور: "بما أن للدين دورَه المعياري الهام" بمجتمعاتنا، "فإني أعتبر تجاهله مستحيلًا"، جرَّب الليبراليون ذلك وفشلوا "وأراد الماركسيون فرض العلمنة... لتدمير الدّين، ففشلوا أيضًا".

مثال آخر لذلك: موقع "مركز بحوث الدين" ويصف نفسه بأنه "مركز أبحاث حديث إسلامي"، فبدلًا من الإلحاد، هدفه "تحديثُ رؤيتنا للقرآن وتوسعتها من أجل توضيحِ حالات سوء الفهمِ، وفهم رسالاته وإمكاناته التي تم إهمالها". يقتبس الموقع من القرآن اقتباسًا متكررًا ودقيقًا، لكنه يقدم شيئًا مختلفًا عن التفسيرات السائدة. يقول الموقع: "نؤمن بأنَّ القرآن يرفض جميع أشكال الخرافات والعبادة العمياء والتمييز والظلم والعدوان والاستبداد ونظام الحكم الدِّيني والتقاليد القمعية".

ويتفادى الموقع الإلحادَ الصريحَ عبر "إعادة تعريف الله"، يقول: "نحن لا نؤمن بالإله كما يراه التيارُ الرئيسُ في الأديان، بل نؤمن بإله، أو بالأحرى بقوةٍ لا ندركها، ليس له شكلٌ أو مكانٌ، وليس له في المحصلة أيَّة منفعةٍ شخصيةٍ، لكنه في الوقت ذاته لا يتلاعب بالبشر تلاعُبَ الملكِ المستبدِّ الطاغية، ونحن لا نؤمن بالعبادة التخليصية، أو بأمورٍ خارقة للطبيعة؛ سيكون في هذا العالم مفاجآتٌ للإنسانية، لا حصرَ لها"؛ لكنها "جزءٌ من خَلْقٍ واحدٍ، فالله هو الكاملُ الذي لم يُخلَق".

وللنُّسَخِ التقدمية من الإسلام خصائصُ نمطية كثيرة، فهم يناقشون نظرتهم للقرآن من الناحية التاريخية على أنَّ أحكامه التي كانت تنطبق على زمن النبي يجب تفسيرها اليومَ وَفقًا للظروف المتغيرة، وهذا مناقضٌ لوجهة نظر الإسلاميين المؤمنين بوجوب

التزامِ القرآن حرفيًّا لا تاريخيًّا، وأنَّ رسالته لا تتغيَّر بتغيرِ الزمان والمكان، والملحدون الذين قابلْتُهم لتأليف هذا الكتاب منقسمون حولَ إصلاح الإسلام، بعضُهم رأى -أو تمنى- إمكان ذلك. "يرى جمال -وهو ملحدٌ مصريٌّ- أنَّ الإصلاح ممكن جدًّا"، ويرفض وجود "نسخ معتدلة للإسلام وأخرى راديكالية". بدرة تقول: "لا أؤمن بإسلام أكثر ليبيرالية"، وربما لأن "أول تواصلٍ لي بالنص القرآني لم يكن إيجابيًّا"، والمرء لا يمكنه الجمع بين "أن يكون مسلما صالحًا -أو إلى حدٍّ ما مسيحيًّا صالحًا- ونصيرًا للمرأة في الوقت نفسه".

أحمد سعيد، (يمني)، يقول: "لطالما وَقَرَ في قلبي أنَّ في الإسلام عيوبًا؛ لذا علينا إصلاحُه وتطويره"، وعلينا تعزيز "إنسانيتنا، وأن نكون أكثر تحضرًا"؛ لكن "الحل لم يأتِ بنتيجةٍ مع الكثير من المسلمين، فقد غُسِلت أدمغتهم بشكلٍ كبيرٍ". "التعليم هو الحلُّ"، و"سيكتشفون لاحقًا أنَّ علينا أن نكون بشرًا قبل أن نكون مسلمين"[1].

يقول الملحد المغربيُّ قاسم الغزالي عن إمكان الإصلاح: "لا يمكن"، ولو استطاع المسلمون استخدام عقولهم بدون الرجوعِ لكتابٍ "يعتقدون أنه كلام الله؛ لأمكننا التحدثُ حينها عن التنوير". "القرآن هو النقطة التي يتقاطع عندها الملحدون والإسلاميون الإصلاحيون"؛ فبيمنا يتَّفقون على العلمانية، يستمدُّ الإصلاحيون حُججهم من القرآن، ويحاولون "إعادةَ تفسيره ليلائم عالمنا الحديث" لكنه "يبقى السلطةَ أو المرجعية" في النهاية، وهنا "يختلف معهم الملحدون اختلافًا كبيرًا".

(١) يقال له: لماذا لا يكون العلمانيون بشرًا قبل أن يكونوا علمانيين؟!

الفصل الثالث: "كتابُ الله"

تحتاج الأديان لإبراز مؤهلاتها السماوية (أو الإلهية) لاجتذاب أتباع؛ فالمسيحيةُ اعتمدت على قصصٍ معجزات المسيح. ويصعبُ تصديقُها؛ لذا يقول كثيرون: إنها لم تحدث أصلًا.

في الإسلام أيضًا معجزات، لكن ليس بالدرجة نفسها، والمسلمون يَعُدُّون القرآن أهمَّ معجزات الإسلام، بينما المسيحيُّون يصفون الانجيل بأنه "كلام الله" ووحي إلهي، ولا يزعمون أنَّه من تأليف الله، إنَّما هو نصوص بشرية. أما القرآن فيقال: إنَّه كلام الله مباشرةً، أنزله على النبي عبر جبريل، وهذا جوهر الإسلام، فلا إيمانَ بدونه، ويتفانى المسلمون في الإثبات، ويتفانى المشككون في الدحض.

مع التهديد بالعقاب الأبدي، حاول كثيرون تقليد القرآن، وأنتج المعري محاكاةً ساخرة له، المحاكاة السَّاخرة الأحدث كانت "الفرقانُ الحقُّ" (نشر بأمريكا ١٩٩٩)، وكُتب بأسلوب القرآن، في الوقت نفسه تقريبًا كان هناك حملة ضد موقع: (SuraLikeIt) لنشره آياتٍ بالإنجليزية مكتوبةٍ بأسلوبِ القرآن، مطلَعُ إحداها:

(١) ألف لام صاد ميم.

(٢) قل يا أيُّها المسلمون أنتم في ضلال كبير.

(٣) إنَّ للذين كفروا بالله والمسيحِ لهم في الآخرة نارَ جهنَّم ولهم عذابٌ أليم.

(٤) وجوهٌ يومَئذٍ كالحةٌ مسودةٌ، يسألون اللهَ العفوَ، والله يفعل ما يشاء...

وهذه الآياتِ المزعومةَ توحي بأنَّ النبيَّ كان يُضِلُّ المسلمين، وبدوره كان يضلُّه الشيطان.

كان لنشر تشارلز داروين كتابَه: "أصل الأنواع" (١٨٥٩) ردود فعلٍ متنوعةٌ من المسلمين، وفي انتقاد لهذه النظرية استشهد جمال الدين الأفغاني (١٨٨١م) باستمرارِ وجودِ قلفة العضو التناسلي الذكري دليلًا على خطأ داروين. حسين الجسر الشيعيٌّ اللبنانيٌّ (القرن التاسعَ عشرَ) رأى إمكان الجمع بين الداروينية والقرآن، يقول: لا دليل

بالقرآن على أنَّ جميع الأنواع" خُلقت كلها". وإحدى أوائلِ النقاشات حول الداروينية ببلدٍ عربيٍّ شارَكَ فيها مسيحيون أمريكيون بالجامعة الأمريكية ببيروت (١٨٨٢م)؛ ففي كلمة ألقاها أشار أدوين لويس، (أستاذُ كيمياء)، لعلماء مثاليين أحدهم داروين. لكن مجلس أمناء المؤسسة (اسمها آنذاك: "الكلية البروتستانتية السورية") رأَوْا أنَّه بالغَ بالوصف فاستقال. وأعلن طلاب الإضراب دعمًا للويس، فعاقبتهُمُ الكلية، وأُجْبِرَ الموظفون على توقيع إعلانٍ لدعم: "القيم المسيحية" بقي حتى (١٩٠٢).

وحسب مروة الشاكري فإن: "الجدلَ اللاهوتيَّ حول نظرية التطور في أوربا" يمكن استخدمه "لدحضِ مزاعمِ الأوربيين بالتفوق". وذَهبَ مسلمون لحدِّ ادِّعاء ملكيةٍ جزئيةٍ لنظريته، مستنِدين لإمكان العثور على أجزاءَ منها بالثقافة الإسلامية، تضيف الشاكري أن المؤيدين والنُّقَّاد على السواء يرون أنَّ الفلاسفةَ المسلمين أشاروا قديما للفكرة، "وكانت النصوص الفلسفية والكونية الإسلامية المبكرة تُقتبس" كلما نوقشت النظرية، وقيست على "نظرياتٍ أقدمَ عن التسلسل الهرميِّ للكائنات"، و"وفَّر افتراض بعض مؤلفات العصور الوسطى أنَّ القردة؛ كانت أشكالًا أدنى من البشر" أدلة لمسلمي القرن التاسع عشر بأن الداروينية ليست جديدة.

وهناك رفض متزايد للنظرية بين مسلمي اليومَ بتأثير رجال الدين المحافظين، والمسيحيين الأمريكيين المؤيدين لنظرية الخَلْق، واليوم يُتناول الموضوع بحذر كبير بالمدارس والجامعات والإعلام.

منظمة تركية: "مؤسسة البحث العلمي"(BAV) تروج دوليًّا للنسخة الإسلامية لنظرية الخَلْق، اعتمدتِ على مواد مسيحية ينشرها معهد أبحاث الخلق بكاليفورنيا (Institute for Creation Research in California) ".

الفصل الرابع: خسارتهم لِدينهم

"الإلحاد ردٌّ على الدِّين، فلولا الدِّين لن يصبح المرء ملحدًا، وسيصبح الله مفهومًا مجهولًا، ولن يكون هنالك سبب محدد لأيٍّ كان ليتساءل حول وجوده من عدمه، وبالتالي سيتحول كلٌّ من الإيمان والإلحاد إلى إنكار".

"كان هذا مصيرَ الأديان السابقة التي تخلى عنها الناس اليوم"، و"لا يمضي أحد الآن وقتَه ليجادل في موضوع آلهة اليونان والرومان القديمة؛ لأنها تبخرت" منذ وقت طويل. قد يكون دور الدِّين في تطور الإلحاد، بل تعزيزه بدون قصد واضحًا جدًّا، ومن المهم إبقاء هذا بأذهاننا عند دراسة إلحاد بعض العرب. وكون الإنسان ملحدًا يعني أنه لا يؤمن بالله، لكن إلحاده يتضمن رفضًا واعيًا لله، ومن ثَم يمكن وصف بعض غير المؤمنين بأنَّهم ملحدون أساسًا (لم يكونوا مؤمنين وقرَّروا الإلحاد)، ولأن تأثير الدِّين بحياتهم كان محدودًا أو غير موجودٍ أصلًا، و"الله" عندهم لا يكاد يختلف عن "زيوس" أو "أبولو".

وغالبًا يكون الإلحاد بالمنطقة خيارًا متعَمِّدًا، الإيمان هو السائد، و"المجتمع لا يتوقع من الناس أن يؤمنوا فحسب"، بل "يأخذ على عاتقه حمايتهم من الأفكار التي يمكن أن تقودهم إلى الشك، ورغم هذه الضغوطات، يغرد بعضهم خارجَ السرب، وبأعداد متزايدة كما يبدو، فكيف يحدث ذلك؟". يقول سعيد كيَّاني (ملحد إماراتي): أرفض فرضية أن فِقدان الإيمان مردُّه سبب واحد، إنه نتيجة عملية معقدة داخلية وخارجية "إنها رحلة داخلية"، فالأمر أشبه بكومتي قش تُوزنان على مقياس ما، "يكون فيه نوعيةُ وبِنْيةُ ومادةُ المقياس هي ما تحدِّد تديُّن الإنسان". وحسب أبحاث أمريكية تؤدي البيئة الدينية "دورًا أساسيًا في تشكيل هوية الملحد"، فبين ٤٠ أمريكيًّا أُجريت معهم مقابلة للدراسة، تبين أن ٣٥ نشؤوا ببيئة إما "متدينة إلى حد ما" أو "متشددة". وأشارت دراسة بجامعة كولورادو إلى أن "القلة الذين نشؤوا في أُسرٍ ليست متدينة جدًّا، أو ليست متدينة أبدًا"، تأثروا "بمستويات مرتفعة من الورع والإيمان اللذَينِ كانا حاضرين في البيئة العامة للثقافة الأمريكية". وحسب دراسة لمركز بيو للأبحاث

(٢٠١٠) يمكن أن يفضي الدِّين للإلحاد، وبإجراء اختبار في المعرفة الدينية تَبيَّن أن أداء الملحدين واللاأدريين الأمريكيين كان أفضل من البروتستانت والكاثوليك، وفُسِرت هذه النتيجة جزئيًّا بفروق مستويات التعليم للعينات.

وبحسب الدراسة، نشأ معظم الملحدين واللاأدريين مسيحيين، وتشير معرفتهم الدينية؛ لأنهم محَّصوا دينهم بعمق، وحسب ديف سيلفرمان من منظمة الملحدين الأمريكيين فإن: "الملحدين يعرفون من الدِّين أكثر من المتدينين" فالإلحاد "نتيجةٌ لتلك المعرفة، لا للافتقار إليها، لقد أَعطيتُ الإنجيل لابنتي، فبتلك الطريقة يُصنَع الملحدون".

وبناءً على المقابلات، اقترح سميث عمليةً من ٤ مراحل:

* الوجود المطلق للإيمان بإله واحد.
* التشكيك بالإيمان بإله واحد.
* رفض الإيمان بوجود إله واحد.
* "الظهور" (أو الإعلان) ملحدًا.

نمط أكده ملحدون عرب كثيرون حاورتهم لتأليف هذا الكتاب، "التخلِّي التدريجي عن الدِّين"، واستغراق ردَّتهم سنوات أحيانًا، ومعظمهم كانت "مواجهتهم للدين كانتِ الحافزَ الأول للشك لديهم، وهو ذلك الشعور بأنَّ هنالك أمرًا ما في هذا الدِّين لم يكن صحيحًا تمامًا وفق ما تعلموه".

غالبًا يبدأ الأمر بسؤال بسيط حول مسألة صدمتهم بافتقارها للمنطق، وولَّدتْ العملية أسئلةً وشكوكًا جديدة، وأشار البعض لتأثُّره بطريقة ممارسة الدِّين، فاستشهد بعضهم بطريقة معاملة المرأة.

أدَّت مناظرات: "العِلم في مواجهة الدِّين" (الشائعة جدًّا بالغرب) دورًا لا يُذكر، بالمراحل الأولية للتشكيك بالدين، والأمر يختلف مع ذوي الاهتمام بالعلم. ولاحقًا تحوَّل بعضهم لكتب ريتشارد داوكينز وكريستوفر هيتشن وملحدين بارزين آخرين.

والتأثير آنذاك كان بالأساس لتعزيز الشكوك الموجودة أصلًا، ولتوفير بيئةٍ أكثر تماسكًا لإلحادهم المتزايد. يقول جمال (ملحد مصري): إن أشخاصًا "من طلاب علم الأحياء والطب، ممَّن بدوا قرَّاءَ متمرِّسين ومطَّلعين على أحدث الكتب التي تشكك بوجود الله على أساس علمي"، ومعظم من عرفتُهم ممن تحولوا للإلحاد بمصر "فعلوا ذلك لأسباب فكرية أو منطقية أو اجتماعية، أو لأسباب فلسفية بنسبة أكبر". وتتحدث دراسة سميث عن أمريكيين شككوا في "الإيمان بوجود إله واحد" فنبذوا الإيمان، وهذا الأمر ليس دقيقًا في حالة الملحدين العرب، فأسئلتهم لم تكن في البداية حول وجود الله، بل بوجوده كما ورد بالأديان السماوية. ومع أن بعضهم يرفض الأديان السماوية، حافظوا على إيمان مُبهم بالألوهية، أو التوقِ للروحانية.

وأكثر ما استشهد به الملحدون العرب بوصفها أولى الخطوات "الغياب الواضح للعدالة الإلهية، فالصورة التي تشكلت لديهم كانت صورةَ إله سريع الغضب، ولا عقلاني أحيانًا، وأنه يسلك تقريبًا مسلك ديكتاتور عربي، أو ربِّ أسرة محافظ، فيتخذ قرارات استبدادية متلهفًا لمعاقبة الناس لأدنى سبب"، و"الوعيد الرهيب الذي طالما تكرر في القرآن حول ما سيَحِلُّ بغير المؤمنين" أضفى انطباعًا قويًّا عندهم في الطفولة.

يقول محمد رمضان (مصري): "كانت فكرة الجحيم الأبدي مزعجة جدًّا" لي، "سألت والديَّ لم سيُنزل الله علينا عقوبة أزليَّة" ونحن نعيش بمتوسط سبعين سنة؟

أحمد سعيد (يمني)، سأل معلميه عن سبب معاقبة الله للناس لعدم الإيمان به، ولم تكن الإجابات مقنِعةً له: اعتدتُ المجادلة بأنني لو ولدتُ ببلد علماني"، "لما كنتُ مسلمًا". وهو "أمر لم أختره"، إنها "مسألة تموضع ديموغرافي" سعودي يُعرف على تويتر باسم "ملحد عربي" أرَّقه معاقبة الله لغير المسلمين ممَّن يبدون لطيفين ومحتشمين، وبوصوله أمريكا للدراسة بكلية يسوعية، أدرك أن "الأديان متشابهة" بأساسياتها.

راماست (مصري) نشأ بكنيسة قبطية يقول: "بدأ الأمر بسؤال بسيط جدًّا: إذا كان الأخيار سيدخلون الجنة والأشرار سيدخلون النار، فما الذي يجعل الإنسان من الأخيار

وما الذي يجعله من الأشرار؟ أهي البيئة؟" الله خلق البيئة. أهي طريقة تربيتنا؟ الله مَن اختار والديِ الإنسان ونشأته. ومهما كان السبب الذي ستذكره، ستقول في النهاية: "الله هو من خَلق ذلك"، ومن ثَم "لا يحملُ المرء وِزر كونه طيبًا أو سيئًا". لم أجد إجابة، وهذا جعلني أشك فقط.

الكويتي عبد الله يقول: أول ما تساءلت بشأنه: "ماهية الله"، والإجابة التي حصلت عليها دائمًا: ستفهم ذلك حين تفارق الحياة، وحين توفي صديق لي بحادث سير، "بدأتُ أتساءل أكثر"، و"كنت أردد: أريد أن أعرف" مرَّت نبيلة (البحرين) بتجربة مختلفة، ربَّاها أبوان ملحدان، كان والدها منتسبًا لمجموعة سريَّة ماركسية لينينيَّة، وأمها ناشطة نِسْوية، لكنهما لسلامتهما أخفياه عن أطفالهما، كانت بطفولتها تفترض أنها مسلمة، لكن أمورًا عائلية حيرتها. اعتادت سؤالهما: "لماذا لا تؤدون الصلاة؟ لماذا لا تصومون؟ وكان جواب أمي: نحن نصلي داخل غرفتنا"، و"عندما كنتُ أسألها: لماذا لا تصومين إذن؟ كانت تقول: "أعاني من قرحة ووالدك لا يستطيع أن يقلع عن التدخين"، "صدَّقتُ هذه الأعذار مدة" مع كونها "سخيفة جدًا".

آنذاك، أخذت جدَّة نبيلة على عاتقها مهمة تحويلها لمسلمة صالحة، فشجَّعتها على حفظ القرآن: وحاولتُ "ولم أستطع، فسألتني: كيف إذن تحفظين واجبك المدرسي؟ فأجبت: "لأنني أفهمه"، عندئذٍ حاولت شرحه لي، فبدأت "تراودني هذه الأسئلة، فأخبرتني بأن الله خلق كل شيء ويعلم الغيب وكل شيء، وأمورًا بهذا المعنى"، فقلت لها: "الله يعلم كل شيء، إذن فهو يعلم بأنني سأولد ويعلم كل فعل سأقوم به... فلِمَ يعاقبني عليه؟"، وبدأت الشكوك.

ملحدون عرب قابلتهم لتأليف الكتاب قالوا: إنَّها رحلة خاصة ومدروسة، وعملية فكرية بفعل تجاربهم الشخصية، وخلافًا للفكرة السائدة بالمنطقة، لم يَعتبر أحد أنَّ الإلحاد عذر للانغماس بالملذات، وفكرة أخرى سائدة (عادةً تأخذ طابع المؤامرة) أنَّ الملحدين العرب استسلموا "لسياسة إضفاء طابع الثقافة الغربية" أو "التأثيرات

الأجنبية" عليهم، وهناك درجة من الحقيقة بهذا، ويُرَدُّ عادةً لانفتاح عقلي نتيجة احتكاكهم بغير المسلمين، أكثر من كونها نتيجة إغراء من الأجانب.

يرى أحمد سعيد (يمني) أنَّ تغير معتقداته حصل عندما بدأ بالقراءة "خارج منظور الإسلام" وخاض نقاشات مع "ملحدين وربوبيين ولاأدريين"، والنقاشات كانت تجري بالإنكليزية فمعظم ناطقي العربية مسلمون، وبتلك المرحلة "لم أكن أرغب بالجدال مع مسلمين؛ لأن الأمر سيكون بلا جدوى"، انضمَّ سعيد لمنتدى: "الملحد مقابل المؤمن" على الإنترنت، وكان يضمُّ ٣٠،٠٠٠ عضو. يقول: "كنت مؤمنًا بنسبة ١٠٠٪ عند انضمامي إليها، كنت أؤمن بالله"، و"وجدت أنِّي لا أمتلك أيَّ دليل لأثبت أنَّ الله موجود، و"أدركت أن جميع الأديان ينظمها أناس، وأن فكرة الله هي من صنع الإنسان".

محمد رمضان يقول: إنَّ عقله تفتَّح بعد انتقاله لجامعة خاصة بمصر، يقول: "بدأتُ أرى أشخاصًا مختلفين تمامًا"، "كانوا مصريين من أصول مختلطة وذوي أفكار مختلفة كليًّا". وأتى التأثير الأكبر آنذاك من شريك السكن، يقول: كان ملحدًا ولم أكن أعلم، تجادلنا كثيرًا وأدركت أنني أتحدث مع شخص عزَّز شكوكًا داخلي. ويعقب: كان النقاش الأول حول أمور مقبولة أخلاقيًا من الدائرة المحيطة بك فقط؛ كان جدالنا طويلًا، وكان المحفز الأول لي.

أحد أقارب محمد أصبح ملحدًا بطريقة مختلفة تمامًا، وكان سلفيًّا متشددًا، يقول محمد: "كانت تلك القصة ذات تأثير قوي بالنسبة لي"؛ لأنه "كان دائمًا في القرية". وبحسب محمد، بعض المسلمين يحافظون على إيمانهم بتفسير القرآن بمرونة، على عكس السلفيين، فهم لا يستطيعون استخدام حجة "عدم قراءة القرآن بالمعنى الحرفي، فهم يعتبرون القرآن" " كلمة الله المباشرة" ويجب أخذه واتباعه حرفيًّا. هذه الطريقة القائمة على مبدأ الكلِّ أو لا شيء تعني أنهم إذا وجدوا بآياته شيئًا يصعب قبولُه؛ فإن البنية الأيديولوجية بكاملها ستواجه الانهيار.

هاشم الشامي (سوري) من أسرة سنية ليست متدينة، فالدِّين لديهم "مبدأ ثقافي

وتقليدي"، فوالده يحضرُ صلوات الجمعة على أنها حدث اجتماعي أولًا. أُرسِل للدراسة بمدرسة بدمشق تديرها حركة: "القبيسيات" (تديرها النساء وتدعمُ نظام الأسد).

يقول: "إن نسختهم عن الإسلام مشابهة كثيرًا للاتجاه العام السائد"، و"مقبولة من الحكومة". والحركة لا تذكر أنَّ القرآن أُنزل على النبي تدريجيًّا، أي: عبر فترة، وليس على أنه كتاب كامل، وتقول بوجود نسخ متعددة من القرآن لفترة، وتتجاهل الفروق المذهبية (السنة والشيعة والعلوية وغيرها). كان إظهار الإسلام في صورة كيان صلب (وحدة متراصة) سياسةً تعمَّدها نظام الأسد لأسباب سياسية. الآن، وبعد تفكير يقول: "عاملونا بفوقية بصفتنا مسلمين سنَّة، ولم يخبرونا الحقيقة"، و"علمونا نسخة واحدة من الإسلام ولم يخبرونا عن الدروز والشيعة والإسماعيليين وغيرهم". و"أحسستُ بوجود خطبٍ جوهري بشكل ما"، "وأنَّ هنالك الكثير من نقاط الضعف في الدِّين يرغبون بإخفائها عنا قدر المستطاع لكي نعتنق الدِّين كما يُعرض علينا، وحين يأتي الوقت الذي تكتشف فيه أن الكثير من المسائل يجب مناقشتها، تكون العقيدة قد ترسخت". مر هاشم بمراحل جعلته أقرب للدين، وابتعد عنه في النهاية، ولاحقًا، انخرط في "حلقات حافظ الأسد الدينية"، يقول: "كانوا يعلمونك كيف تقرأ القرآن قراءة صحيحة وكيف تحفظه غيبًا، كما كانوا يعلمونك الحديث وكيف تكون مسلمًا صالحًا بالمعنى العامِّ للكلمة". وجد هاشم أنَّ طريقة: الاتجاه من الأعلى للأدنى كانتِ تعكس نَهْجَ "حزب البعث"؛ رأى لأول مرة عالَمًا مختلفًا حين درس بلاتفيا، يقول: "دول الاتحاد السوفييتي السابق شديدة الإلحاد".

في البداية امتنع عن المحرمات، يقول: "كنتُ أفكر دائمًا بأنني سأخيب أمل أسرتي بي"، وامتنعت عن ذلك سنة، وكانت أول تجربة له في شرب الكحول بلبنان، يقول: اعتدتُ زيارة أصدقائي بالجامعة الأمريكية، وكلما حاولوا إقناعي بالشرب كنت أرفض، وفجأة قلت لهم: حسنًا. هاشم لم يندم، يقول: "شعرتُ بأني قد حرمتُ نفسي من الاستمتاع بوقتي قليلًا." وفي النهاية أعلن هاشم إلحادَه، وهو يعتقدُ أنَّ المشكلة ليست

متعلقة بالدين بحد ذاته، وإنما بسبب "وجود فرق على الصعيد الاجتماعي بين أن تكون مسلمًا سلبيًّا وملحدًا فاعلًا"، ويتابع: أحيانًا أناقش والدتي. "ذات مرة قلت لها: إذا كنت تؤمنين بوجود الله وبأنه يرعانا فبحق الجحيم، ما الذي يحدث في سورية والبلدان الأخرى إذن؟"، ولا أزال في النهاية "مسلمًا بالنسبة لها". بالنسبة للمسلمين السابقين؛ فإنَّ أحد أشكال العقاب الإلهي المثير للجدل بصورة خاصَّة: أنَّ الملحدين سيدخلون الجحيم؛ ومن ثَم فإن مَن لم يجدوا فرصةً للتفكير باعتناق الإسلام، ومن فكروا باعتناقه جديًّا ولم يقتنعوا، سيواجهون جميعُهم اللعنة الأبدية؛ لأنهم لم يؤمنوا. وكثير من "الملعونين" يعيشون حياة متحضرة وبريئة لحدٍّ كبير، وَفق أي معايير عادية. يقول أحمد: توصلتُ إلى أن "الدِّين مسألة تتعلق بمكان ولادتك، وبالدين الذي يفرضه عليك والداك".

الفرق الأساسي هنا: طريقة تعاطي الملحدين مع أسئلة مبادئ الأخلاق، فبرفضهم الإيمان بالله يضعون جانبًا القواعد المحَددة مسبقًا، وبدلًا من ذلك أجروا محاكمات أخلاقية بناءً على تفكُّرهم الخاص، ويرى كثيرون أنَّ هذا أفضل؛ فالخيارات تعتمد على ما يرونه صائبًا، لا على ما طُلِب منهم القيام به تحت التهديد بالعِقاب، ويعقِّب أحد المشاركين بدراسة سميث قائلًا: متدينون كثيرون لا يدركون أن بإمكانك ببساطة اختيار التصرف الأخلاقي، وأنْ تحدد لنفسك الإطار الأخلاقي منطقيًّا، فالأمر برأيهم متعلقٌ بأوامر الله، والعقاب الإلهي. إنه: "الترغيب والترهيب"، فقيامك بأمرٍ ما "خوفًا من العقوبة"، "يزيل تمامًا ما أعتبره بُعدًا أخلاقيًّا".

التقدم الذي تلخصه دراسة سميث حول الملحدين الأمريكيين تُتَوَّجَ بـ"إعلان الإلحاد": الانتقال من التشكيك للإنكار المقصود، ويمكن أنْ يكون "الظهور" ملحدًا بمجتمعات يهيمن عليها الدِّين خطوةً صعبةً حتى بأمريكا، يقول سميث: "إنَّ اعتبار الإلحاد أمرًا معيبًا ومنحرفًا يجعل المطالبة بالهوية والاعتراف" صعبًا في البداية.

الدستور الأمريكي يفصل الدِّين عن الدولة، لكن أمريكا إحدى أكثر الدول تديُّنًا، وغالبًا يؤثر الدين بالسياسة، وفي ٢٠٠٧ ضمَّ الكونغرس لأول مرة ملحدًا، ويشكك

كثيرون بإمكان انتخاب رئيس للدولة أعلن إلحاده. ويصف ٦٠٪ من الأمريكيين أنفسهم متدينين و٥٪ ملحدين؛ ما يسهم بتفسير تردُّد بعضهم في إعلان إلحادهم، مع أنَّ حرية التعبير والحرية الدينية مبادئُ دستورية أساسيةٌ.

وقلة من العرب يفعل ذلك حاليًّا، فالأخطار كبيرةٌ جدًّا، لكن ظروف الأفراد متباينةٌ إلى حدٍّ كبير، ومعظم من الْتقيتهم لتأليف الكتاب طلبوا إخفاء أسمائهم، ولأنَّ عائلات كثيرة يقلقها مجرد التفكير بوجود شخص غير مؤمن بينهم، لا يسعى الأقارب عادةً لتأكيد مخاوفهم فيتبعون منهج: "لا نسأل، لا تخبروا". تقول بدرا (لبنانية): تركتُ بيتي بالثامنة عشرة وذهبت للجامعة، ابتعدت وتوقفتُ عن الصيام. ولا أعلن معتقداتي؛ كي لا أؤذيهم، "يعرفون أنني أشك بوجود الله لكنهم يفضِّلون تجاهل ذلك".

تواسي الأسر القَلِقة نفسها بأمل توبة قريبهم المتمرد يومًا، يقول أحدهم: أنا "الآن في الخمسين" و"مضى على إلحادي أربعٌ وعشرون سنة، فهي إذن ليست مجرد مرحلة". وبخلاف كثيرين غيره، يجادل هذا الملحد أقرباءه السعوديين في الدِّين: "كثيرًا ما ندخل في نقاشات ساخنة"، ولسوء الحظ يفتقر كثيرون للثقافة العلمية "فقد غُسِلَتْ أدمغتُهم"، ومع عِلم أُسرته بإلحاده ونشره المتكرر على تويتر، لكن "الملحد العربي" يخشى تعرُّضه للتهديد إذا كشف اسمه، وأخبر صحفيًّا إماراتيًّا: "هويتي سرية للغاية"، وأحميها بتدابير وقائية.

أحمد سعيد أخبر والديه أنه لا يعتقد بوجود إله، فاستهجنوا ذلك؛ يقول: أخبَروني أساسًا "يمكنك أن تؤمن بالعلم وبنظرية التطور، ونظرية الانفجار الكبير"، جميع هذه النظريات من خلق الله، عائلتي محافظة، لكنها ليست كذلك بالمطلق، فيقولون لي: إني كلما تعمقتُ بالعلم زاد يقيني بالله، لكن أحمد أكثر حذرًا في أثناء نقاشاته مع أصدقائه المسلمين.

عادة، يقول: إنني "ربوبي، أي: أؤمن بالله ولكن لا أؤمن بالإسلام. أحاول ألا أصدمهم بالقول: إنني لا أؤمن بالله مطلقًا؛ لأنهم سيعتقدون أنَّ كل ما أقوله سخيف، وبأن الشيطان قد استحوذ على فكري"، لكنني "أعتقد بأن الإسلامَ وجميعَ أديان العالم قد أعطتِ الله اسمًا سيئًا"، وهذا ما أجادلهم به، ولا أستطيع إعلان إلحادي.

اكتشفت سارة في الكويت أنَّ تعرف غير المؤمنين، والنقاش حول الإلحاد يمكن أن يكون عملًا دقيقًا وصعبًا، وغالبًا كان ينتابها الفضول حول مَن بدا أنهم يتجنبون استخدام التعابير الدينية التقليدية بحديثهم اليومي، لكن المظاهر يمكن أن تخدع. تقول: "قابلتُ أناسًا بدَوا غير متدينين، ولكن عندما كان يتعلق الأمر بالدين كانوا يظهرون أنفسهم متدينين"، "كنتُ أعتقد أنهم مثلي تمامًا" و"ظهر الدِّين". "في الكويت أعرف بضعة أشخاص فقط ممن أستطيع التحدثَ أمامهم في هذا الموضوع بصراحة"، بالتأكيد أقلُّ من عشرة. تقول نبيلة (البحرين): أصبحت أقل تقيُّدًا "كان الأمر صعبًا جدًّا في البداية"، لكنني "بدأتُ أدركُ مع تقدمي في السنِّ أهميةَ أنْ ألتزمَ الصمت حيالَ هذا الموضوع؛ كما أُجري محادثات مع الكثير من المسلمين المنفتحين عقليًّا في الحوار".

يقول "رامسات" المصري الذي كان مسيحيًّا: إنه لا يتباهى بإلحاده؛ ولا ينتقد الدِّين لأنَّه يحقق غايةً روحية للإنسان؛ فيقول: "ليس الدِّين أمرًا سيئًا؛ بل هو أمر جيد؛ وإلا لما أَحدَثَه الناس، لا يهمني إنْ كنتُ أحتاج إلى الدِّين أم لا؛ لأنني أعرف الآن أنه ليس صحيحًا؛ فأنا أحب "بابا نويل"، وأعرف أنَّه ليس حقيقيًّا. "لا تنتقد الدِّين، بل دع الناس في سعادةٍ ما لم يؤثر فيهم الدِّين بطريقة سيئة؛ كقتل بعضهم بعضًا"، "إذا كان الأمر مناسبًا لهم فلا تحاول إصلاحه".

ريم عبد الرازق، (مصرية)، ترى الصمت غير مجدٍ، تقول: "عندما يبدأ الناس أخيرًا بالتكلم صراحةً، لن يتم فرضُ هذه القوانين بالقوة ضد الإلحاد والتجديف... إلخ"، فلا يمكنهم "فرضها على الجميع بالقوة"؛ وإذا تعلق الأمر "بشخص واحد"، "عندها سيسجنونه، أعلم أنَّ كثيرًا من المصريين يؤمنون بما أؤمن به تمامًا، إلَّا أنهم لن يُظهروا ذلك أبدًا، وبالتالي فإن الفكرة العامة تقول بوجود قلة من الملحدين فقط"، وإذا سُجِنوا أو قُتِلوا فلن يبقى أحد، هم كثيرون وإذا بدؤوا بالكلام فستتغير الأمور.

الفصل الخامس: الإلحاد والجنس (النوع) والميول الجنسيَّة

تاريخيًّا، هيمن الرِّجال على الدِّين، فالأنبياء ورجال الدِّين والكهنة: ذكور، و"الله" يشار إليه على أنه مذكَّر، حاولت كنائس غربية معالجة القضية، فأصبح هنالك قساوسة إناث، لكن الدِّين بالمنطقة ذكوري خالص؛ والتعاليم الدِّينيَّة غالبًا تهيئُ أسباب التمييز ضدَّ المرأة؛ ومن ثَم يمكن القول: إنَّ للنِّساء بالمنطقة أسبابًا أكثر من الرِّجال لترك الدِّين، مؤكّدٌ أنَّ منهنَّ مَنْ تركت الدِّين؛ لكن البيئة الاجتماعية للنِّظام الذُّكوري تجعل مجرَّد التفكير بذلك صعبًا على الأخريات.

ولمن نجحنَ في الرِّدَّة خلفيات مختلفة، كما في هاتين القصتين:

الأولى: اللبنانية بدرة التي رفضت النظام الذكوري (العلماني والديني).

الثانية: نُهى محمود سالم، (سلفيَّة مصريَّة) كان سلوك زوجها أحد أهمّ أسباب إلحادها، نشأت في عائلة متدينة تقليدية، وحصلت على جائزة في حفظ القرآن، ثم ارتدَتِ النقاب، الشُّكوك راودتها بعد زواجها، صفعها زوجها يومًا؛ وعندما اشتكت لوالدها قال لها: إنَّ له الحقَّ في ضربها حسب سورة النِّساء، وبدأت تتساءل: كيف أعطى الله للزوج الحقَّ بهجر زوجته وضربِها وحرَّم أذية الحيوانات؟ "هلِ النِّساء أقلُّ شأنًا من الحيوانات؟"، "كيف يمكن السماح بإذلال النِّساء؟". تدهورت العلاقة، وإلحادها أنهى زواجها، فزوجها يؤمن أنَّ الإسلام نهى عن الزواج من مرتدة.

بدرة، (من طرابلس اللبنانية) قصَّتها مختلفةٌ مع أنَّها أيضًا تضمَّنت النِّظام الذُّكوري؛ كان شغفها بالكاتبة الوجودية الفرنسية سيمون دي بوفوار أحد أسباب إلحادها، وحقيقة أنَّها نشأت بلا أبٍ أسهمَ بإلحادها، تقول: "ارتبط الدّين، بالنسبة لي كطفلة، بالموت بشكل رئيس"، "كنَّا نستمع إلى القرآن في أحد المآتم، حين أحسستُ أنَّ سماع القرآن عدوانيٌّ وحزين وسلبيٌّ". كان "أوَّلَ لقاء حقيقي لي مع الدِّين".

جاءت المواجهة الرئيسة الثانية لبدرة مع الدِّين بالمدرسة، كانت والدتها شيعيَّة، وكان والدها سنيًّا، ودرست بمدرسة راهبات. تقول: "إنَّ عدم وجود مرجعية واحدة لي

أنقذتني من الدِّين بطريقة أو بأخرى"، "إلى أنَّ تأسَّست حركة التَّوحيد الإسلاميَّة" بطرابلس (ثمانينات القرن العشرين)، كانت فرصة "لإعادة استكشاف الدِّين". "تأثَّرتُ في البداية بهذه الحركة الثقافية الإسلامية في المدرسة، وحضرتُ الدروس الدينية". وبسبب الخلاف المذهبي كنت ممزَّقة بين ولاءين، وأسهم هذا بتبديد حماستي الجديدة للدِّين. راحت بدرة آنذاك تقرأ عن الأدب الفرنسي والوجودية، تقول: "بهذه الطريقة ابتعدتُ عن الدِّين. كنتُ أقرأ مؤلفات "سارتر" و"دي بوفوار""، "ولكن أكثر ما قرأت" كتاب: (مذكرات ابنة مطيعة) لسيمون دي بوفوار. "كانت الكاتبة تتحدث عن نفسها عندما كانت مراهقة فوجدتُ أنَّ قصتها تشبه قصتي" و"اتخذت قراراتٍ لم تتوقعها عائلتها".

مِثلَ هذه الضغوط الاجتماعية ليست السبب الوحيد لبقاء نساءً متشبثات بالدين. في الغرب، كانت علاقة الدين بجنسِ الشَّخص (النوع) مَدارَ أبحاثٍ اجتماعيةٍ كثيرة، وكثير منها وجد المرأة عمومًا قابلةٌ لأن تكون "أكثر تدينًا". تُخضَع المرأة بالدين، وتلقى فيه دعما وسندًا في الوقت ذاته.

الجزء الثاني: حماية الدين

الفصل السادس: امتيازات الدِّين

كل مسلم بالغٍ يصوم كلَّ رمضان، ويُفترَضُ أنَّ يهدف الصيام لضبط النفس وتهذيبها، لكنه عندما يكون تحت التهديد بالاعتقال؛ فإنَّه يصبح انصياعًا أكثر من كونه ضبطًا للنفس، فاستخدام القانون لضمان الصِّيام يقوِّض الغرض الأخلاقيَّ منه، كما هو الحال في دول عربية كثيرة يهمهما الحفاظ على المظاهر فحسب. في الممالك العربية يُفترض أن يعتلي العرش: مسلم (بنصُ دساتير: الأردن والكويت وعُمان وقطر)، وفي الجزائر وموريتانيا وسوريا وتونس واليمن نص أنْ يكون الرَّئيس مسلمًا؛ ومن ثَم يُطبَّق مبدأ التمييز الدينيِّ على رئيس الدَّولة. الصورة بلبنان أكثر تعقيدًا بسبب مزيج الأديان والطوائف، ومع ذلك هناك تمييز، م عدم وجود دين للدَّولة، وحرمان غير المسلمين من "الرئاسة" قد لا يبدو أمرًا يستحقُّ الذِّكر؛ ففي حكم المؤكَّد تقريبًا سيُختار مسلم لشغل هذا المنصب؛ لكن ذلك يخالف مبدأ المساواة في الحقوق.

ولوضع النُّقطة بسياق أوسع؛ فإنَّ ٤٩ بلدًا بالعالم لديها شروط دينيَّة للمنصب، ووفق دراسة لمركز بيو: ١٩ دولةً (١٦) عضوًا بالكومنولث البريطاني والدنمارك والنرويج والسويد) لديها ملك مسيحيٌّ شرفيٌّ، ومن البلدان التي يكون لرئيس الدَّولة فيها دورٌ أكثر من شرفيٍّ، ١٧ دولة تشترط أن يكون مسلمًا، ومعظمها بالمنطقة، ويحدِّد الدُّستور أن يكون الرئيس بوذيًّا في: بوتان وتايلاند، وفي إندونيسيا يجب أن يؤيد "البانجاسيلا" (فلسفة سياسية توحيدية تقوم عليها الدَّولة). وفي ٨ بلدان أخرى، يُشترط أن يكون الرئيس علمانيًّا.

ووجود الأديان الرسمية بكل أنحاء العالم ليس أمرًا غير مألوف أبدًا، ووجدت دراسة (٢٠٠٤) أن ٧٥ دولةً من أصل ١٨٨ (أي ٤٠٪) لديها دين للدَّولة. أحيانًا، (شأن معظم الدُّول العربية) يظهر هذا في الدُّستور بوضوح. وقد تدعم الحكومة دينًا معينًا: ماليًّا أو تعليميًّا، ووجود دينٍ للدَّولة يعني أشياء مختلفة ببلدان مختلفة، فتأثير الدين على

الحياة اليومية ببريطانيا، مثلًا: ضئيل إلى حدٍّ ما؛ تأثيره في الدُّول العربية كبير جدًّا، وديانات الدُّولة لا تتعارض مباشرة مع القانون الإنساني الدَّولي، لكنَّها عمليًّا تؤدي لا محالةَ لانتهاك الحقوق، وبين تقرير للأمم المتحدة حول حريَّة الدِّين والمعتقد (٢٠١١) أن: "مجرَّد وجود دين للدَّولة قد لا يتعارض بحدِّ ذاته مع حقوق الإنسان، لكن يجب ألّا يُسْتَغَلَّ هذا المفهوم على حساب حقوق الأقليات" فيؤدي للتمييز، و"يبدو من الصعب -إن لم يكن مستحيلًا- أن نتصور وجود تطبيق لمفهوم "دين الدَّولة" الرسميِّ من دون آثار سلبية في الأقليات الدينيَّة"، فسيتعرض أفرادها للتمييز، وبصرف النظر عن الجو العامِّ للتديُّن، هناك تفسيرات سياسية لانتشار ديانات الدَّولة بالمنطقة، أحدها: أن معظم الحكومات لم تُنتخَب بحرية؛ ومن ثَم تحتاج لمصادر أخرى للشّرعية. وعالميًّا، للربط بين الدِّين والدَّولة تاريخٌ طويلٌ، والفصل ليس كاملًا بأوربا، مع الانخفاض الكبير المطَّرد لمرتادي الكنائس، ومع كون المجتمع علمانيًّا إلى حدٍّ كبير الآن؛ فرئيس الدَّولة ببريطانيا مثلًا رأس الكنيسة الأنغليكانية في الوقت ذاته، وبقي "قانون التّجديف" حتى ٢٠٠٨، لكنَّ تطبيقه كان نادرًا جدًّا قبل إلغائه. تتمتع الكنائس بدول أوربية كثيرة بامتيازات منحتها الدَّولة، والرَّوابط بين الدِّين والدولة بأوربا أقلَّ أهميَّة بكثير ممَّا هي عليه في الدُّول العربيَّة اليوم.

على عكس ما هو عليه الحال بدول أوربية كثيرة، يوجد بأمريكا فصلٌ رسميٌّ بين الدِّين والدَّولة، لكنها تبقى متديِّنة جدًّا اجتماعيًّا وسياسيًّا، وهذا النَّموذج يدحض فكرة أنَّ الدِّين ينحسر تلقائيًّا بمجتمع متقدم ومتطور تكنولوجيًّا. ولذا؛ يجب أنْ يكون هناك تفسير آخر لشعبيَّةِ الدِّين بأمريكا وتراجعه بأوربا نسبيًّا. "عامل الارتياح" قد يكون ذا أهميَّة خاصَّة؛ فهنالك أدلة كثيرة، بجميع أنحاء العالم على أنَّ انعدام الأمن يجذب النَّاس نحو الدِّين. وخدمات الرِّعاية الاجتماعية المقدمة بأمريكا أقلُّ بكثير مما تقدمه غالبية الحكومات الأوربية، مع أن أمريكا بلد مزدهر؛ ومن ثَم يمكن القول: إنه بينما يَقصد الأوربيون الدَّولة للحصول على الرعاية؛ فإنَّ الأمريكيين يلتمسونها من الدِّين، وبعضهم

يعزو ذلك للتنوُّع العرقيِّ والثقافيِّ بأمريكا؛ حيث عامل الارتياح قد يكون مهما، ويمكن ملاحظة رواج الدِّين بين الأمريكيين السُّود، حيث تُوفِّر كنائسُهم الدعم الاجتماعي والتضامن في وسط يمكن عده أحيانًا بيئة معادية. وفيما يتعلق بـ"عامل الراحة" فالدول العربية أقرب لأمريكا منها لأوربا "حيث يزدهر الدِّين بوضوح"، "حيث الفقر والاضطرابات". و"دولَ الخليج الغنيَّة تمثِّل استثناءً"، فالدِّين قد ينحسر هناك بغياب الدعم الحكومي له.

ونظرية أخرى قد تنطبق على الدُّول العربيَّة، فهي (أي: النظرية) تنظر للدِّين على أنه سوق تُمنح فيها دياناتُ الدَّولة حقَّ الاحتكار؛ وآدم سميث، (القرن الثامن عشر)، أولَ من نظَّر للدِّين هكذا: يرى أن "الجانب الأبرز في دين الدَّولة هو ترويجها للموقف الاحتكاري للدين المفضل"، و"فرض قيود على دخول المنافسين" تركز دراسة سميث على الآثار السلبية للمواقف الاحتكارية للكنيسة الأنغليكانية بإنجلترا والكاثوليكية ببلدان أخرى، ويرى أن محتكري الخدمات الدينيَّة يميلون كجميع الاحتكارات- لأنْ يصبحوا "خاملين وغيرَ مبدعين"؛ ولذا "تنخفض جودة الخدمة".

رودني ستارك وروجر فينك في كتابهما: "ممارسات الإيمان" يقولان: إن الأديان التي ترعاها الدَّولة محكومة في النهاية بفقدانها أتباعها، بينما "السُّوق الحرَّة" في الإيمان تسمح للأديان بالازدهار، طالما تبذل جهدًا لإرضاء "زبائنها". عربيًّا، توحي هذه النظرية بأن دعم الدَّولة لا يخدم الإسلام على المدى البعيد، مع أن خدمته ليست بالضرورة غايةَ الدعم الذي تقدمه الدَّولة؛ وعمليًّا، نادرًا ما تتبنَّى الحكوماتُ الدِّينَ بدافع خير، إنما بدافع نفعي، ومن المهمِّ هنا التمييزُ بين التربية الدينيَّة والإرشاد الدينيِّ، فالإرشاد "تدريس دينٍ أو معتقدٍ معيَّنٍ بناءً على مبادئه"، وغالبًا يطلب العامَّة ذلك، بحسب تقرير للأمم المتَّحدة: "يرى كثير من الآباء أن تطوير المعارف والمهارات الاجتماعية" لأطفالهم بالتَّعليم يكتمل بأن يتضمَّن "حِسًّا بالوعي الدينيِّ وتعرُّف دينهم أو معتقدهم"، و"توفير الإرشاد الدينيِّ في نظام التَّعليم الحكومي".

والتَّقرير ذهب للقول بأنَّ الإرشاد الدينيِّ بالتَّعليم الحكومي "يجب أن يصاحبه ضمانات محددة" للأقليات الدينيَّة، وأن يحترم قناعاتِ الآباءِ والأوصياءِ الذين لا يؤمنون بأيِّ دين، وإمكان الانسحاب من هذه الأنظمة لا ينبغي أن يرتبط بإجراءاتٍ مرهقةٍ أو بعقوبات، تهدف التربية الدينيَّة لتوسيع معارفهم حول الأديان والمعتقدات؛ وتوفير المعلومات حول الأديان الأخرى ليس جزءًا منها، بل هو أقربُ للتخصُّصات الأخرى كالتاريخ أو العلوم الاجتماعية. وهذا النوع من التعليم، إذا طبِّق بحياد، سيؤثر إيجابيًّا في تعزيز التسامح.

يضيف تقريرٌ للأمم المتّحدة: المعلومات حول الأديانِ والمعتقداتِ ينبغي أن تتضمن دائما الرؤيةَ الحاسمةَ بأن الأديان (واقعًا اجتماعيًّا) غيرُ متجانسةٍ. وينطبق هذا على النُّظُم العقائدية غيرِ الدينيَّة، ولهذه الرسالة أهمية خاصة؛ لأنها تساعد في تفكيك المفاهيم القائمة على عقليةٍ جماعية تُنسَب غالبًا لجميعِ "أتباعِ الدياناتِ أو المعتقداتِ المتنوعةِ بطريقةٍ سلبيَّةٍ ونمطيةٍ". و"يجب الاهتمام دائمًا بالأصوات البديلة الموجودة في التَّقاليد الدينيَّة"، وضمن "ذلك أصوات النِّساء".

الفصل السابع: مسلم للمرة الأولى مسلم دائمًا

ترحب أغلب الدِّيانات بالمنتسبين الجدد، ويُحثُّ المسلمون على المشاركة في الدعوة، فآيات قرآنية كثيرة تشجع ذلك: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[1]، ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[2]. وبتنفيذها، أصبحتِ السعودية أحد أكبر مصدِّري الدِّينِ، ويُعزى ذلك لتخوُّفها من انتشار التشيع، كما أن مؤسسات وأفراد من المملكة نشروا أدبيات إسلامية حول العالم بكلفة قليلة أو بالمجان.

كان هدفُ بعض هذه الجهود الدَّعوية جذبُ مسلمين نحو الإسلامِ الوهابي، ولاقت هذه الجهود نجاحًا بدول كثيرة. السُّعوديَّة موطنُ النبي ومسقط رأسه؛ ولذا فإنَّ الأفكارَ والممارساتِ الدينية السعودية "الوهابية" تُعدُّ الأكثرَ "صحَّة وموثوقيَّة". منشورات أخرى كان هدفُها اعتناق أشخاصٍ جددٍ الإسلام. والدعوة في دول عربية كثيرة طريق يخدم هدفًا واحدًا، تُشَجِّعُ على الدّعوةِ للإسلام، وتَعُدُّ الدعوة التي يضطلع بها غير المسلمين تحريضيًّا ومحرَّمًا قانونيًّا وسياسيًّا، وسيدافعُ بعض عن هذه القوانين بحجة أن الإسلام يجب معاملته معاملةً خاصة؛ لأنّه الدين الصحيح الوحيد. تحاولُ الحكوماتُ العربية -بالمقابل- تبرير هذه الإجراءات في سياقِ الاستثناءات الثقافيةِ، وحتى المخاوف الأمنية، أي: أن هذه الحكومات تخشى أنْ يؤدي التبادُلُ الحرُّ للأفكارِ حول الأديان للفتنة. إنَ عدَّ وجود معارضين محتملين سببًا لقمع المعارضة الدينية يعطي هؤلاء الحجة ليقولوا ما يشاؤون.

أحد أبرز الأمثلة الفاضحة عن هذه البدائل: الإعلانُ الإسلامي العالمي لحقوق الإنسان (١٩٨١ ومتُرجم للإنكليزيَة). طُمست فيها الأجزاءُ الأكثرُ تقييدًا والموجودة بالّص العربي، فتبدأ المادة ١٢ أ بالترجمة الإنكليزية بأن: "لكلِّ شخص الحقُّ في التعبير عن أفكاره ومعتقداته، طالما بقي ملتزمًا بالحدود المنصوص عليها في القانون". هذه

(١) سورة النحل: ١٢٥.

(٢) سورة آل عمران: ١٠٣.

الترجمة تجعلُ الإعلان يبدو متوافقًا مع الأعرافِ الدولية؛ لأن التعبيرَ عن المعتقداتَ (بخلاف الاعتناق) يمكن أحيانًا تقييدُه بالقانون. الترجمة الإنكليزية مضلِّلة وغير دقيقةٍ، فالنص العربي، يقول: إنَّ "لكل شخصٍ الحقُّ في التَّفكيرِ والاعتقاد والتعبيرِ عن أفكارهِ ومعتقداتهِ دون تدخُّل أو معارضةٍ من قِبَلِ أيِّ شخصٍ، طالما أنه ملتزمٌ بالحدودِ المنصوصِ عليها في الشَّريعة".

النص العربي لا يميز بين اعتناق المعتقد والتعبير عنه، فكِلا الأمرين خاضعان لضوابطَ قانونيّةٍ خضوعًا يتعارض مع النظرة الدولية المقبولة، والمشكلة الثانية أن كلمة "القانون" بالترجمة الإنكليزية تعني الشريعة الإسلامية، لا يمكن في الحقيقة اعتبارُ الوثيقة إعلانًا للحقوق بقدر ما هي إعلانٌ بأن الشريعة الإسلامية هي ما يحدِّدُ حقوقَ الناس؛ ولا يمكنُ تحديدُ هذه القوانين بدقة، فالشريعة ليست نظامًا قانونيًّا مدوَّنًا، وتحتمل تفسيرات مختلفة.

يقول آر أف ستالي بكتابه: "مقدمةٌ إلى قوانينِ أفلاطون": "أفلاطون كان يتوقع من أعضاءِ المجلسِ الليلي" تحويل الملحدين للدين بـ"نقاشٍ فلسفي"، وبما أن أَمَلَ الملحدِ الوحيدَ بالحرية يكمن في موافقته على إرشادات مرشديه، "فإنَّ من الصعب أن تتَّسم ظروفُ النِّقاش بالإنصاف والحرية، ومن ثم يُعَدُّ وصفُ هذه الخُطوة بأنها "غسيل للدماغ" هو الوصف الأكثرَ دقَّةً". "النوع الأخطر من المذنبين" من يجمعون بين الإلحاد وازدراء البشرية، وهؤلاء يجب سجنهم مدى الحياة، يقول أفلاطون: "لا تدع إنسانًا حرًّا يقتربُ منه، وأتركه يحصل على وجبات طعامه"، "من أيدي العبيد، وعندما يموت ألْقِه خارجَ حدود الدولة ولا تدفنه". رسم توماس مور (القرنِ السادسِ عشر) في: "المدينةُ الفاضلة" صورة مجتمعٍ مثاليٍّ، متسامح إلا مع الملحدين، آمن سكان مدينته بالحياة بعد الموت، واعتُبِرَ ذلك ضروريًّا للنِّظامِ الصَّحيح، فالنَّاس سيحتقرون جميعَ القوانين والأعراف الاجتماعية علانيةً في غياب الرادع.

من هنا لا يمكن معاملة غير المؤمنين على أنهم مواطنون يتمتَّعون بالحقوق الكاملة،

يضيف: "يجب ألا يُمنحَ أيُّ شخص يحمل مثلَ هذه الآراء أيَّ مراتبَ شرفيةٍ أو مناصب أو مسؤولياتٍ عامة، فهو مُصَنَّفٌ عالميًّا بأنه وضيعٌ وبليد"، لكنهم "لا يعاقبونه لأنهم مقتنعون أنه لا يمكن إرغام شخصٍ على اختيار معتقد ما بالقوة. "لا يختلف هذا عن فكرة: "الموت المدني" بالأردن اليوم حيث يُجَرَّدُ المرتدون من جميع حقوقهم الاجتماعية الأساسية كالزواجِ والميراث وحضانةِ الأطفال.

كان الفيلسوف الإنكليزي جون لوك مؤيِّدًا للحرية الدينية، وقال في "رسالة في التسامح" (١٦٨٩): لا يجوز تجريدُ شخصٍ "من حقوقهِ المدنية بحجة انتمائه إلى كنيسةٍ أو ديانةٍ أخرى"، و"لا يحقُّ لأيِّ شخص أو كنيسة أو حتى أحدِ دول الكومونويلث مصادرةُ الحقوقِ المدنية أو الممتلكات باسم حمايةِ الدِّين". عدَّ لوك التنوع الديني أمرًا مفيدًا وليس سببًا للاضطرابات الأهلية، ويرى أنَّ الاضطرابات تسببها محاولة محاربة التنوُّع الدينيِّ، لكنَّه وَجد أنه من الصعب تقبُّل الملحدين، فإطلاق العنان لهم يمكنُ أن يوهنَ العقيدةَ الدينية للأمة؛ ومن ثَم سيقوِّض قِيَمها الأخلاقية؛ وشكَّك بنزاهة الملحدين، يقول: "إن الوعود والمواثيق والأيمان التي تمثِّل روابط المجتمع ليس لها أي قيمةٍ عند للملحدين"، و"الابتعاد عن الله –ولو بالفِكر فقط– سيؤدِّي إلى حلِّ هذه الرّوابط."

النظرية القائلة أنه لا يمكن الوثوق بالملحدين، وفرت أساسًا قانونيًّا لتمييز استمر بإنكلترا قرنين بعد وفاة لوك، فمُنِعَ الملحدون من شغل مناصبَ محدَّدةٍ، والإدلاء بشهادتهم بالمحاكم، وكانت تشترط أداء قَسَم ديني، لكن في النهاية تُغُلِّب على هذا بقبول تأكيدات غير دينية بديلًا للقَسَم. وفي (١٨٨٠) انتُخِبَ تشارلز برادلاف، (ملحد، عضو بالحزب الجمهوريّ)، في البرلمان. طَلَب برادلاف أداء "التأكيد" غير الديني بدلًا من القَسَم، ورُفِض طلبه ودار نقاش حادٌّ خسر بعده منصبه وتكرَّر هذا مرَّاتٍ، وفي ١٨٨٦ أُعيد انتخابه وسُمِحَ له بتأدية "التّأكيد" غير الديني بدل القَسَم ليدخل البرلمان.

الفصل الثامن: الحق في الإساءة: والتسبُّب في الصدمة والإزعاج

إن تبادل الأفكار والمعتقدات نشاط بشري طبيعي، ولولا تجريب الناس للأفكار، ولولا تعبيرهم عن آرائهم واختلافهم في الرأي لَبقيت الحضارة تراوح في العصر الحجريِّ؛ ولذلك لا يمكننا الادعاء بأنَّ أفكارنا هي مُلكنا ما دمنا نحتفظ بها لأنفسنا، فنحن بحاجة لأنْ يُسمح لنا بالتعبير عنها، وبحاجةٍ للقيام بذلك رِفقة الآخرين أحيانًا. وحقوق: الفكر والعقيدة وحرية التعبير وحرية تكوين الجمعيات مترابطة، وجُمعت على التوالي (المواد: ١٨ و١٩ و٢٠، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان).

وخلافًا لحرية المعتقد، لا تُعَدُّ حرية التعبير ولا حرية تكوين الجمعيات حقوقًا مطلقةً؛ لأنَّ ممارستها تتعارض أحيانًا مع حقوق الآخرين؛ ولذا قد يكون ضروريًّا أحيانًا فرضُ قيود لتحقيق توازن بين حقوق قد تتعارض، ويجب إبقاء هذه القيود بحدها الأدنى. وترى المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان أن مطالَبات التّعدّدية والتّسامح وسعة الأفق كثيرةٌ جدًّا (في الأقل في المجتمعات الديمقراطية) وقد تصل للمطالبة بحماية حرية التعبير حتى لو تسببت بالإساءة للآخرين. وفي قرارٍ تاريخي (١٩٧٦) قررتِ المحكمة الأوربية أن حرية التعبير لا تنطبق على الأفكار "الإيجابية أو الأفكار غير المؤذية أو ما يأتي منها على سبيل اللامبالاة، بل تنطبق أيضًا على الأفكار التي تسيء وتصدم وتزعج أيَّ شريحةٍ من السكان".

و"ترفُض معظم الحكومات العربية وكثيرٌ من المسلمين هذا الأمر رفضًا قاطعًا، ويرون أنَّه يجب حماية الأشخاص المتدينين" من التعليقات التي تحمل إساءةً ما لهم أو تضعهم موضع السخرية وتطبيق ذلك ينتج عنه "جميع أنواع الممارسات التمييزية والمجحفة". وبعد سنوات من إصدار المحكمة الأوربية حكمها بخصوص الحقِّ في الإساءة، دفع المجلس الإسلامي في أوربا بالاتجاه المعاكس، فأصدر (١٩٨١) "الإعلان الإسلامي العالمي لحقوق الإنسان"، وفيه: إنَّه لا يجوز السماح "بازدراء المعتقدات الدينية للآخرين أو السخرية منها أو التحريض علانية على العداء ضدَّها أو

الاستخفاف بالمشاعر الدينية للآخرين"؛ ومن ثَم سعى الإعلان لمنح حصانةٍ للمعتقدات الدينية بوصفها تختلف عن غيرها من المعتقدات. وما يدعو للسخرية، سعي الإعلان لحظر نشر "الباطل أو الزور"، فسيطالب الملحدون عندئذٍ بحظر الدين؛ لأنَّهم يرونه زورًا.

بين ١٩٩٩ و٢٠١١، وبطلبٍ من الدول الإسلامية أساسًا، أصدرتِ الجمعية العامة للأمم المتحدة، ولجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، ومجلس حقوق الإنسان في الأمم المتحدة، قرارات لمواجهةِ "تشويه الأديان"، وانتُقِدَت هذه القرارات بدعوى تعارضها مع حرية التعبير، وتكشف إلى حد ما السّياسةَ الدوليةَ آنذاك، فهي كانت استجابةً لتعصُّبٍ وتحاملٍ على المسلمين ازداد حينها، وبخاصة في الغرب، وصمهم بالإرهاب؛ لكن هذه القوانين كانت بالاتجاه الخاطئ، تقول منظمة تدافع عن حرية التعبير في المادة ١٩: "إن مفهوم التشهير بالدين غير واضح، ويفتقر إلى أساس متين في القانون الدولي". فمصطلح "تشهير" يشير للإساءات غير المبررة لسمعة شخصٍ ما. وكالمعتقدات الأخرى لا يمكن أن تقول: إن الأديان لديها سمعتها الخاصة بها، ووَرَدَ بتقريرٍ للأمم المتحدة أن حماية السُّمعة بالقانون الدولي تهدف لحماية الأفراد، "وليس القيم المجرَّدة أو المؤسسات".

يعالجُ القانون الدولي التعصب الديني وأشكال التعصب الأخرى بوصفها "خطابَ كراهية". ويدعو العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية الحكوماتِ مثلًا لحظرِ "الدعوة إلى الكراهية القومية أو العنصرية أو الدينية التي تمثِّل تحريضًا على التمييز أو العداوة أو العنف"، ووَرَد بالمادة (١٩) أن الأنسب حظر أشكال معينة من خطاب الكراهية، لكن تقييد النقاش في القضايا الخلافية، وضمنها الدين، لن يعالج المشكلات. يحتاج الأمر بدلًا من ذلك لنقاشٍ مفتوحٍ للتّعريف بالضرر الذي قد يسبِّبه التَّحامل والتَّعصب، ولمحاربة القوالب النَّمطية السلبية (أو التعميم الزائد). في ٢٠٠٩، أصدر ثلاثة مقرَّرين خاصَّين بالأمم المتحدة بيانًا مشتركًا يعزز هذا: "علينا ألا نغفل غايتنا في

إيجاد أنجع السبل الممكنة لحماية الأفراد" من الدعوة للكراهية والعنف من آخرين؛ و"خطاب الكراهية ليس سوى عَرَضٍ لهذه الظاهرة، أي: التجلي الخارجي لمكنوناتٍ أعمقَ بكثيرٍ"، "هي عدم التسامح والتعصب الأعمى؛ ولذلك فإن الردودَ القانونية، كالقيود على حرية التعبير وحدها، هي أبعدُ من أن تكون كافيةً لإحداث تغييرات حقيقية في العقليات والتصورات والخطاب لمعالجة الأسباب الجذرية للتعصب نحتاج إلى مجموعةٍ أوسعَ من التدابير السياسية، كالحوار في مجال الثقافات مثلًا، أو بتكثيف التعريف بالتسامح والتنوع".

وأضاف هؤلاء أنَّ هذه السياسات ينبغي أن تعزِّزَ حرية التعبير لا أن تقيِّدها، يقولون: "إن الردَّ الإستراتيجي على خطاب الكراهية هو مزيد من الكلام". كما حذروا من اعتبار "التشهير" بالدين مساويًا للعنصرية وغالبًا تدعي الأديان التفوق، ومن ثَمَّ "فإن العناصر التي تمثِّل تصريحًا عنصريًّا قد لا تكون مساوية للعناصر التي تمثِّل تصريحًا يشهر بالدين على هذا النحو." وعمليًّا، وجدتْ دراسة للأمم المتَّحدة أن القوانين الوطنية التي تحمي الدِّين تفشل بحماية الحقوق الدينية للأفراد، وغالبًا ينطوي تطبيقها على التمييز؛ لأنَّها تحابي الدين السائد. تقول الدراسة: "وهناك أمثلة كثيرة على اضطهاد الأقليات الدينية والمعارضين والملحدين وغير الموحِّدين؛ نتيجةً لتشريعات تخص الإساءة للدين، أو نتيجةً للتطبيق المفرط للقوانين المحايدة إلى حدٍّ ما". و"الحق في حرية الدين أو المعتقد، كما هو منصوص عليه في المعايير القانونية الدولية ذاتِ الصلة لا يشمل الحقَّ في امتلاك دين أو معتقد محصن ضدَّ النَّقد أو السُّخرية". ونقطة أخرى جديرة بالملاحظة، هي أنَّ قيادة المؤسسات الدينية، ببلدان كثيرة، تتمتع بنفوذ وتأثير يتجاوزان القضايا الدينية؛ من ثَمَّ فليس من المصلحة العامة وجود قوانين تحميهم من التمحيص والنقد.

في أكتوبر ٢٠١١ بثت قناة نسمة التلفزيونية الخاصة فيلم الرسوم المتحركة: "برسيبوليس" (فائز بجائزةٍ بمهرجان كان)، وعُرِضَ آنِفًا بدور السينما التونسية دون ضجة تُذكر. الفيلم يصوِّر الأيام الأخيرة من حكم الشاه وقيام ثورة إيران (١٩٧٩)، كما

عاشتها شابة تظهر بمشهد قصير وتتخيل أنها تتحدث إلى الله الذي صُوِّرَ على هيئة رجلٍ مسنٍّ ذي لحيةٍ بيضاءَ. يعد تصوير الله تصرُّفًا وثنيًّا في التعاليم الإسلامية، فهاجم متظاهرون محطة التلفزيون، وحاولوا إحراقها، وغُرِّم مالكها وموظفون بها بتهمة "الإخلال بالنظام العام وتجاوز الآداب العامة" وطالبَ اثنان من المحامين الإسلاميين بإعدامهم، وصرَّح أحدهما بأنَّ "أي شيء متعلق بالله فهو مُطلق".

وتعليقًا على المحاكمة، اتَّهمتْ منظمةُ العفو الدوليةُ الحكومةَ التونسيةَ بغياب إرادة الدفاع عن حرية التعبير، و"لا يمكن فرضُ هذه القيود إلا عند الضرورة القصوى"، ولا "يجوز إدانة الناس وإطلاق الأحكام ضدَّهم بسبب آرائهم، حتى لو كانت الآراءُ مثيرةً للجدل أو جارحةً." في الوقت ذاته تقريبًا أُدين ملحدان تونسيان قضائيًّا لنشرهما موادَّ اعتُبِرت "ضارةً بالنظام العام أو بالآداب العامة".

ألف الماجري عدة كتبٍ، متاحةً للتحميل بالإنترنت، أحدها عن الجنس، وذكرَ ممارسات، ضمنها المثلية التي وصفها بأنَّها تُقبل على نحو متزايد "في المناطق ذات التفكير المنفتح"، ووصف الاعتداء الجنسي على الأطفال وأرفَقهُ برسمٍ كرتوني "للنبيّ محمّدٍ في الخمسينيات من عمره وهو يحاول غَواية عائشة وهي في السادسة". وكان شكل رداء النبي بالرسم يوحي بوضوحٍ أنَّه كان في حالة هيجانٍ جنسيٍّ. ونَشَر الماجري كتابًا آخر عنوانه: "الهدى والنور" يبدأ بالسؤال: " هل يحتمل أن يكون القرآنُ ليس سوى كتاب كامل من الأكاذيب الشَّيطانية؟".

لم يتسبب أيٌّ مما سبق بضجة آنذاك، لكن محاميًا اعترض على صور على صفحته بفيسبوك وطلب منه إزالتها ورفض الماجري، ما دفعه لمقاضاته ليُقبض عليه. شَعَرَ غازي الباجي آنذاك بالقلق على صديقه وذهب للتحقق من ملف المحكمة ليكتشف أنَّ قضيةً رُفعَتْ ضدَّه هو أيضًا، ففرَّ من البلاد وأُدِين غيابيًّا. سافر الباجي للجزائر وتركيا ثم تسلل بطريقة غير شرعية لليونان. كتب الباجي كتابه: "وهمُ الإسلام"، ونشره على الإنترنت معتقدًا أنَّه كان يعيش بعد الثورة التونسية "في حقبةٍ جديدة". ضمَّ أحد فصول الكتاب

أربعة رسومٍ كرتونيةٍ معدَّلة، اثنان منها يربطان المسلمين بالإرهاب، وأخرى مسيئة للرسول، والرسم الرابع تعلق بالسيدة عائشة والنبي، وهو الرسم الذي ظَهَر في كتاب الماجري عن الجنس.

وبعد حملة دولية، أُفرِج عن الماجري بعفوٍ رئاسيٍّ (٢٠١٤)، أما الباجي فحصل على اللجوء في رومانيا. إن "الكفر أو التجديف" مصطلحٌ فضفاضٌ يُستخدم في السياق الديني لوصف مظاهر الازدراء بالشخصيات والأشياء، والكلمة الإنكليزية مشتقة من الفعل اليوناني الذي تعني "التحدث بسوء عن"، لكن في العربية يمكن استخدام كلمات مختلفة كثيرة كالسَّبِّ والشَّتم واللَّعن والتَّكذيب... إلخ، وأحيانًا يُعَدُّ الكفر في الإسلام نوعًا من الرِّدَّة.

الفصل التاسع: طعمُ الحرية؟

خلقتِ الثورة المصرية (٢٠١١م) فرصةً لغير المؤمنين للخروج من الظل أكثر من أي بلدٍ عربيٍّ آخرَ، فظهر الملحدون علنًا بالإعلام المرئي والمقروء وعقدوا اجتماعاتٍ علنيةً، بل طالبوا بحقوق عند صياغة دستور جديد. وكان واضحًا أن مُحرمًا كُسِر، ولم يَعُدْ بالإمكان تجنُّب حقيقةِ وجودهم، حتى لو كانتِ الفكرة عند الغالبيّةِ العظمى لا تزال بغيضةً، وحتى لو مال الإعلام لتصويرِ الملحدين على أنهم نماذجَ للانحلال الأخلاقي؛ كان لهذا بلا شكٍّ صلةٌ بروح الثورة التي عصفت بالبلاد مع تباين الآراء حول ماهية الصلة، وقد تكون هناك تفسيرات لذلك؛ وينبغي التمييز بين الإلحاد ظاهرةً، بالكاد كانت تُرى بعد صعود الإسلام السياسي، وبين إلحاد ربما كان موجودًا أصلًا ومنذ سنواتٍ في بعض الحالات، دون سماع صوته.

لم تكنِ الثورة المصرية وانتشارُ الخطابِ الإلحاديِّ سببًا ونتيجةٍ بقدر ما كانا نتيجتين لعمليةٍ واحدةٍ: مساءلة السلطة وتحديها، الشيءُ الذي كان لوسائلِ التواصلِ دورٌ مهمٌّ فيه. والثورة أسهمت أيضًا بمساءلة الدين؛ لأنّها ربما جمعت جماعاتٍ كثيرة متباينةِ من الناشطين الساعين لإسقاط النظام وصَهَرَتهم ببوتقةٍ أيديولوجية واحدة، الكاتب حلمي نمنم قال: ظهرت حركة الإلحاد لأول مرةٍ في تاريخ مصر في سنة حكم الإخوان، وهي "ردَّةُ فعلٍ ضدَّ سوء حكم جماعة الإخوان"، "التي دَفَعتْ عامة المصريِّين إلى المساواة بين الدِّين والقمع". خالد دياب، (صحفي ملحدٌ)، خالف هذا الرأي، بقوله: عند من تخلوا عن دينهم أو من هم بلا دينٍ أصلًا، "لا أعتقد أن لرئاسة مرسي أي دورٍ" بذلك، "فلو كان الأمر كذلك" لما كان هناك تاريخ طويل من الإلحاد"، وبعض هؤلاء "ملحد منذ فترة طويلة".

نشرت صحيفة البديل الإلكترونية (القاهرة) في ٢٠١٣ فيلمًا يُظهر ثمانية شُبانٍ مصريين يتحدثون عن إنكارهم أيَّ عقيدةٍ دينيةٍ، والتحامل الذي واجهوه نتيجةً لذلك، أحدهم قال: "ليس من السهل على الناس تقبُّل فكرة أنْ أكون بلا دين" ويقول آخر: "لو عَلم الناس في مكان العمل بذلك الأمر لأصبحتُ بلا عملٍ". ويقول ثالثٌ وهو سلفيٌّ

سابقٌ: "مطالبنا بسيطةٌ للغاية وأساسيةٌ، فنحن لا نطمع إلا بالحصول على ذاتِ الحقوق التي يتمتع بها أي مصري آخر". وذكرت أسماء مَن ظهروا بالفيلم (ستةُ رجالٍ وامرأتان) كانت وجوههم ظاهرة للكاميرا باستثناءِ واحدٍ. وقدَّم الفيديو (١٢ دقيقةً) آراءهم بأسلوبٍ واقعيٍّ بدون تعليق. قد لا يكون لهذا الأمر أهمية كبيرة بدول كثيرة، لكن حين يتعلق الأمر بالإعلام المصري المتحدّث بالعربية فقد بدت الحادثة غير مسبوقة، فمِثلُ هذه الآراء ستُقابَلُ بالإدانة، هذا إنْ عُرِضت أصلًا.

يُقال: إن فيلم "الملحد" (عُرض ٢٠١٤) أول فيلم مصري يتناول الموضوع. وبسبب عنوانه بصورة رئيسة، أثار جدلًا واسعًا حتى في أثناء إعداده. مُخرجه (نادر سيف الدين) أكد أن الفيلم لا يؤيد الإلحاد ويناقش "مشكلةً اجتماعيةً محورية". والأزهر والرقابة وافقا في النهاية على عرضه، لكن مصيره كان الفشل. تردَّدت السينمات في عرضه خوفًا من الاحتجاجات الشعبية. يحكي الفيلم قصة داعية مسلم وابنه الملحد. كان ذلك الشيخ مُقدم برنامجٍ دينيٍّ بفضائية، وأصبح أُضحوكةَ المشاهدين بعدما كُشفت حقيقة مُعتقد ابنه.

وبينما كانت وسائل الإعلام الناطقة بالعربية تميل لتهويل الموضوع، وتغذِّي التَّحامل والتمييز ضدَّه، كان الإعلام المصري الناطق بالإنكليزية أكثر واقعية وتوازنًا، وكانت المواد المنشورة بالإنكليزية موجَّهة لجمهور بعينه، وغالبًا كانت تمرُّ بدون أن تلاحظها الجماهير، ما منح النَّاشرين هامش حرية أكبر عند التطرق لمواضيع حساسة كهذه. فمثلًا، انتقدت صحيفة Egypt Independent محاكمة ألبير صابر المدان بالتَّجديف (الكفر) و"ازدراء الأديان"، ومقالاتٌ أخرى عالجت الإلحاد بصراحةً أكبر.

إحدى المقالات عن المرتدين عن المسيحية والإسلام استهلت بالقول: "يقول الملحدون في بلدٍ متدين كمصر: إن أعدادهم في تزايدٍ مستمرٍّ رغم كون الإلحاد أمرًا محظورًا وممقوتًا بشدّةٍ"، لكن "أيُّ ظهورٍ لأية حركةٍ جديدة كان يُقابل بِردٍّ فعلٍ ثقافيٍّ". والتقت الصَّحيفة ملحدين معظمهم شباب بمقهى بالقاهرة "لفهم المحن التي يواجهها ملحدو مصر".

الفصل العاشر: سياسات الإلحاد

عربيًّا، للتخلي عن الدِّين غالبًا تبعات كثيرة، وتخلي المسلم عن دينه مجازفة، فإما أن يصبح موضوعًا يتباهى به مبغضو الإسلام، أو يُتهم بالعمالة في معركةٍ لم يشأ خوضها، واعتبار المسلمين السابقين عملاء يلغي أي حاجةٍ لأخذ حججهم بجدية، لكن الشَّك بوجود مؤامرة ضد الإسلام والمسلمين ليست محض خيالٍ، مع المبالغة فيها غالبًا، فهناك منظمات غربية بغيضة كثيرة تسعى لإثارة التحيز ضد المسلمين، وتعدُّ هذه المنظمات المسلمين السابقين مادة دسمة. هناك اختلافات بين الدين والعِرق بلا شك، فالعِرق مثلًا موروثٌ ولا يمكن تغييره عكس الدين، وهذا من الناحية النظرية في الأقل، ومن الضروري إدراك أن الدين قد يكون أكثر بكثيرٍ من: مجرد نظامٍ عقائدي.

فهو، غالبًا، يصوغ هويةً وانتماءً ثقافيًّا، وأحيانًا سياسيًّا، فهناك نكتةٌ قديمةٌ عن الاضطرابات الطائفية في أيرلندا الشمالية حيث أخرجَ شخصٌ رجلًا من سيارته مطالبًا إياه بالإفصاح فيما إذا كان مسيحيًّا كاثوليكيًّا أو أرثوذكسيًّا، فأجاب الرّجل -لتجنُب المشكلات- بأنه يهوديٌّ ملحدٌ، فسأله المعتدي وهو غير راضٍ بالجواب فيما إذا كان ملحدًا يهوديًّا بروتستانتيًّا أم ملحدًا يهوديًّا كاثوليكيًّا. كان هذا أحد الأسباب التي دفعت باللجنة الأوربية المناوئة للتعصب والعنصرية لتعريف العنصرية بأنها "الاعتقاد بأن أمورًا كالعِرق واللون واللغة والدين والجنسية والقومية أو الأصولٍ القومية أو العرقية تبرر ازدراء شخصٍ أو مجموعة من الأشخاص، أو بأنها الاعتقاد بتفوق شخصٍ أو مجموعة".

غالبًا تتحول الإشارة للعلامات الثقافية كالدين واللغة والملبس لبديلٍ لأشكالٍ أكثر صراحةً من العنصرية، فهي "لا تعني بأي شكلٍ من الأشكال النقاش المباشر حول مواضيع على أسس عنصريةٍ واضحة". تقول هبة كريشت، (ملحدة عربية) في حوارٍ مع أعضاء آخرين من مجلس المسلمين السابقين في شمال أمريكا: "إن معظم المواقف العنصرية هي في ظاهرها ليست موجهةً إلى شعوبٍ معينة، فقد كَثُرت المواقف العنصرية حول الأمهات العازبات وموسيقى الراب والطوابع التي تحمل صورًا للطعام والستر

ذوات القبعة وتمائم (شعارات) كرة القدم، وهذه ليست شعوبًا أو أعراقًا بحد ذاتها، فالنقاشات العنصرية التي دارت حولها يمكن اختصارها بمعتقدات مُعممة فيما يتعلق بعادات ومجتمعات أولئك الذين تصدر عنهم هذه المواقف العنصرية".

دوكينز وسام هاريس وكريستوفر هيتشنز من "الملحدين الجدد" المعروفين بمنهجهم الشعبوي اللاذع والعدواني أحيانًا، فقد كتبت ناثان لين بمقالٍ نقديٍّ بمجلة Salon: "لم يكن حضور "دوكينز" و"هاريس" ورفاقهم على الساحة العامة ملحوظًا كثيرًا، مع أنهم موجودون منذ سنين" و"لم يمثل الإلحاد حينها أمرًا عظيما"، حتى "قرر محمد عطا ورفاقه" نسف "برجي التجارة العالميين"... "، وعندئذٍ تغير كل شيء"...

لم يبرز الإسلام علنًا بهجمات "الملحدين الجدد" حتى ١١ سبتمبر. "وعادةً كان الإلحاد العدو الأبرز للمسيحية كونه ظاهرة نشأت في أوربا"، لكن "الملحدين الجدد انخرطوا في جوقة "المبغضين الجدد" المتعاظمة"، "فراحوا يخلطون بين اشمئزازهم من الدين عامة وكرههم للإسلام على وجه الخصوص"... و"تحولت النقاشات حول الاستحالة العملية لوجود الله وحول اللاعقلانية العلمية لوجود الحياة الآخرة إلى رُهاب من هجرة المسلمين أو إلى موضوع الحجاب، فقد أصبح "الملحدون الجدد" هم الإسلاموفوبيين الجدد وأصبحت إهاناتهم للمسلمين تشبه اللغة الغوغائية للعنصريين الجهلة أكثر من كونها تقييمًا مُستندًا إلى العقل والمنطق والعقلانية". تقول سارة حيدر عضو مجلس المسلمين السابقين بشمال أمريكا: "بإمكانك تقديم الكثير من الحجج التي تثبت بأن النهج الذي ينتهجونه ليس الأكثر عقلانيةً، وربما ليس الأنسب بشتى الطرق، إلا أنه لا يبدو متعصبًا من وجهة النظر التي انطلقنا منها"، و"لا يبدو عنصريًّا بأي شكلٍ".

بين المسلمين السابقين تأتي الانتقادات للإسلام من الليبراليين المقيمين بالغرب "وممن لديهم حساسية مفرطة تجاه التعصب أو تجاه أي شيءٍ يمكن أن يمتَّ للتعصب بصلة". وترى سارة حيدر أن من لا يعيشون بالغرب والمهاجرين الجدد سيفرحون بما يقوله دوكينز وهاريس. "ليس لدى الكثير من المسلمين السابقين أدنى مشكلة مع ما

يُدعى: "الملحدين الجدد"، بل إنهم يرون أن هذا النهج في المواجهة ضروري جدًّا؛ إذ تُعَدُّ هذه نقطة خلافٍ في المجتمع، فهناك من يدافع عن رأيه في كلا الجانبين". و"قلة قليلة يعتقدون أن "سام هاريس" و"ريتشارد دوكينز" في الحقيقة متعصبون"، والخلاف غالبًا "حول فعالية التكتيكات التي يتبعونها"،

"عندما يكون شخصٌ ما مُتعمقًا جدًّا في الدين فإن تصريحًا صادمًا واحدًا كفيلٌ بجعله يعيد تقييم معتقداته، فعندما كنتُ مسلمة لطالما قيل لي: إن الإسلام هو الدِّين الأكثر تقدمًا فيما يتعلق بحقوق المرأة، وهو شيءٌ أؤمن به ولم أتكلف عناء التحقق منه، فلماذا سيكذب شيخي عليَّ؟" وكان لقائي بملحدٍ وقعٍ ما دفعني لمراجعة معتقداتي، واتَّضح لاحقًا أنه يعرف نصوصًا دينية من ديني أكثر مني، "وسألتُ نفسي: هل أساء هذا الرجل لي؟ نعم! هل آذى "مشاعري الدينية"؟ نعم، إلا أنني ما كنت لأترك النقاش لولا عدوانيته".

تتضمن حرية التعبير -كما نصت المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان- الحق في "الإهانة والتسبب بصدمة والإزعاج" وهذا لا يعني أن لدى الناس حرية قول أشياء هجومية لأتفه الأسباب؛ فهناك مناسباتٍ معينةٍ يحقُّ لهم فيها ذلك؛ فيمكن قمع النقاش المشروع بسهولةٍ، لولا وجود هذا الحق في الإهانة لأن بعض سيدعي تعرضه للإساءة، لكن الناس ذوي الأفكار والمعتقدات المختلفة بحاجة للتعايش في جوٍّ من التعددية والتسامح وعدم التمييز والاحترام المتبادل، ومع صعوبة التوفيق الكامل بين هذه المطالب المتضاربة، لكن الهدف حقيقةً إحداثُ توازنٍ عادلٍ قدر الإمكان بينها. وقدَّمت دراسةٌ أجرتها مفوضية البندقية Venice Commission (٢٠٠٨) برعاية المجلس الأوربي اقتراحات عن المواضع التي يجب أن يحصل فيها هذا التوازن. تقول المفوضية: "يجب أن يكون انتقاد الأفكار الدينية ممكنًا، حتى وإن فهمه بعض على أنه إيذاءٌ لمشاعرهم الدينية. إن إهانة مبدأ أو عقيدة أو ممثِّلِ دين ما لا ترقى بالضرورة إلى درجة إهانة مشاعر الشخص الذي يؤمن بذلك الدين"، ويجب ألا تُجرَّم الإهانات للمشاعر الدينية، ما لم

تحتوِ على تحريضٍ على الكراهية.

وأقرت المفوضية بأن الخط الفاصل بين الحديث المهين والتحريض على الكراهية غالبًا "يصعب تحديده"، وتتضمَّن العوامل ذات الصلة: نية المتكلم المتهم أو المؤلِّف، ومدى تأثير الصادر عنه، وسياق التصريح، والجمهور المقصود، وما إذا كان من صرح بذلك يتحدث بصفةٍ رسمية. وحذَّر التَّقرير من كثرة الاعتماد على القانون وسيلةً لقمع أحاديث الكراهية؛ كونها قد تخلقُ توقُّعاتٍ لا يمكن تحقيقها، وقد تقدِّم للمذنبين نصرًا إعلاميًّا بتحويلهم لشهداء. يقول التقرير: حالها حال مشكلات أخرى بالمجتمع؛ فإن "إيجاد التوازن بين حرية الدين وحرية التعبير ليست مهمة المحاكم في المقام الأول"، بل مهمة المجتمع كله، بالمناقشات العقلانية بين جميع فئاته، وضمن ذلك المؤمنون وغير المؤمنين.

وفي مسألة العِرق والدين، أقرت المفوضية إلى حدٍّ ما بوجود فرق بين الإهانات العنصرية والإهانات الموجهة ضدَّ أتباع دينٍ معينٍ، وترى المفوضية أن الفرق دفع بعضًا إلى الاستنتاج بأن "مجالًا أوسع من النقد مقبولٌ حينما يتعلق الأمر بالدين أكثر منه فيما يتعلق بالعِرق"، ولا يجب استخدام هذا الأمر ذريعةً لإلغاء الحدود بين "المناقشة الفلسفية الصادقة"، والإهانات الدينية غير المبررة". وكلمة "غير مُبررة" وَردت بمواضع عدة بالتقرير، وقد تكون اختبارًا مُفيدًا للكلام المرفوض، وحدَّدت اللجنة اختبارًا آخر، هو أن نسأل فيما إذا كان التعبير عن الأفكار "يسهم بأي شكلٍ من أشكال النقاش العامِّ الذي من شأنه تعزيز التَّقدُّم في القضايا الإنسانية". وترى المفوضية أن ليس جميع الأفكار تستحق التداول: "وبما أن ممارسة حرية التعبير تحمل في ثناياها واجباتٍ ومسؤولياتٍ"، نتوقع من كل عضو بمجتمعٍ ديمقراطي تجنُّب قدر الإمكان التّعابير المنطوية على ازدراء أو إساءة غير مبررة للآخرين، بإمكان الرقابة الذاتية المعقولة المساعدة بإحداث التوازن. "وقد يكون الامتناع عن التفوه بتعابير معيَّنةٍ مقبولًا تمامًا عندما تكون الغاية منه عدم إيذاء مشاعر الآخرين بلا مُبرِّر، في حين أنه غير مقبولٍ بصورةٍ واضحةٍ عندما يكون هذا ناجمًا عن الخوف من ردود الفعل العنيفة. "وتقول المفوضية: إنه يجب ألا "تتراجع حرية

التعبير كيفما اتفق" عندما تواجَه بردود فعلٍ عنيفةٍ.

يتألف العرب الغير المؤمن من ناشطين وغير ناشطين (لا يفضلون تغيير الواقع)، وبعكس "الملحدين الجدد" يفضل بعضهم تفادي التسبب بالإساءة، تقول بدرا (لبنانية): عندما أشعر بالعجز عن ممارسة حقوقي كاملة "قد أختار عدم المواجهة؛ لأن الثمن سيكون غاليًا"، إن تحدي آراء الناس الدينية لا يعزز بالضرورة حرية المعتقد، ومما لا شك فيه أن غير المؤمنين بحاجةٍ لإثبات وجودهم، وإلا قد تُتجاهل حقوقهم ببساطةٍ، لكن منهج "الملحدين الجدد" يميل أكثر لمحاولة تشويه صورة الدين بدلًا من تشجيع التسامح، ما يؤدي عادةً لنتائج عكسية عندما يتعلق الأمر بالعالم العربي.

يُعَدُّ التسامح مع الأقليات كافة مبدأً ما زالت حكومات المنطقة ومجتمعاتها مترددةً بتقبُّله، ويُنظر للتعددية على أنها نقطة ضعفٍ بدل أن تكون نقطة قوةً ممكنة، وأدى تطور السياسات الانتخابية بدول عربية للإفراط بتبسيط: الأغلبية؛ إذ لا يدركون أهمية حماية حقوق الأقليات. إن العمل على تغيير هذا الواقع سيساعد غيرَ المؤمنين على تحقيق حريتهم، لكنهم لا يستطيعون تحقيقَها بمفردهم فهم بحاجةٍ لتحالفاتٍ مع آخرين يسعون لتحقيق تغيير سياسي واجتماعي، وقد يُضطرون لإقناع الحلفاء المحتَملين الذين قد يعتريهم الشك بأن حرية الإيمان لصالح الجميع، وضمن ذلك المؤمنين.

وإحدى العقبات التي تحُول دون القبول الشعبي العام، تلك الفكرة السائدة بأن الإلحاد يؤدي للانهيار الاجتماعي وإشاعة الفجور، وهو ما يجب مواجهته. تُظهر أمثلة عالمية إمكان أن تزدهر المجتمعات غير المتدينة، ولا تعني الحرية الدينية بالضرورة انحدار المعتقد الديني. ويُظهر مثال أمريكا أن الحرية الدينية قادرة في ظروفٍ معينةٍ على الازدهار دون اللجوء لدعم متواصل وإجراءات تُطبِّقها الحكومات العربية، وقد يعاني الدين على المدى الطويل إذا كان مدعومًا من الحكومات.

ولتحرير أنفسهم من الدين يحتاج غير المؤمنين لدولةٍ علمانيةٍ، لكن إحراز تقدُّم في العلمانية لا يجلب بالضرورة تطوراتٍ في الحرية الدينية، فالنوع التسلطي من العلمانية

ليس أفضل حالًا من التسلط الديني؛ لذا يجب تطوير العلمانية في إطارٍ من التسامح. لقد أسيء فهم العلمانية بصورة واسعة عربيًّا، وطالما سُوِّيت بإجحافٍ بالإلحاد، وكلما استمر هذا الفكر قل احتمال علمنة الدولة، ولإحراز تقدُّمٍ كهذا يجب إقناع الناس أن العلمانية ليست طريقًا خفيًّا للإلحاد، بل طريق للحرية، فهي تمنع الناس من فرض معتقداتهم على الآخرين، وقد تكون هناك حالات يجب فيها على غير المؤمنين الوقوف إلى جانب المؤمنين بدلًا من العلمانيِّين الشديدي العداء للدين. فمثلًا: قد يرحب غير المؤمنين بالحظر السويسري على المآذن، لكن من المهم إدراك تأثيره السلبي على حرية المؤمنين. وبالمثل، فإن تأييد تشديد القيود الفرنسية على الحجاب (بينما نعارض القوانين التي تلزم المرأة بزي معين بالسعودية) لا يبدو موقفًا ثابتًا ومنسجمًا فيما يتعلق بالحرية الشخصية.

إن المكانة المتميزة التي يحظى بها الدين عربيًّا اليوم مشابهة تمامًا لِما كان عليه حال أوربا، فأفلاطون عندما كان يدعو لعِقاب من "يتكلمون أو يتصرفون بوقاحةٍ" عن آلهة اليونان القديمة، أشبه ببعض رجال الدين السعوديين اليوم، لكن أوربا اتجهت تدريجيًّا نحو العلمانية وبات الإلحاد أمرًا شائعًا جدًّا الآن، فالرحلة الممتدة من اعتراف توماس مور بعدم جدوى معاقبة غير المؤمنين، إلى تقبل الحق بالإلحاد، لم تحدث بمَعزِل عن أمور أخرى. فمفهوم الحرية الدينية تطور بالتَّوازي مع أفكارٍ سياسيةٍ (حكومةٍ محدودةٍ وسيادة الشعب واستقلال الفرد). يقول ستيفن غاي: "لم يكن ممكنًا الاستمرار بالهجمات الرسمية ضد الإلحاد بأوربا مع الجو الفلسفي الذي خلقه التنوير، والتجريبية والشك الفكري والثورة العلمية المرافقة للتنوير، جعلت الحفاظ على الحماية القانونية للسلطة الدينية، صعبًا".

وإدراك أوربا التدريجي بأن قمع الإلحاد غير قابلٍ للاستمرار يطرح احتمال أن تحذو الدول العربية حذْوَها في النهاية، فالانفتاح الطارئ الخطاب العام مؤخرًا، وتدفُّقِ الأفكار يشبه إلى حد ما مجريات عصر التنوير بأوربا، وقد يكون لذلك التأثيرات ذاتها،

أحد العقبات السياسية الأساسية أن الأنظمة العربية ما زالت ترى الدِّين أداةً مفيدة للسُّلطة؛ فهذه الحكومات أقدر على فرض إرادتها عندما تزعم التصرُّف وفقًا لرغبة الله، وأوربا لقرونٍ حكمها ملوكٌ ادَّعوا "حقَّهم الإلهي"، وهو موجود لليوم بالمنطقة، والحكومات العربية الأكثر علمانيةً تميل لإظهار مؤهلاتها الدينية.

وهذا قد لا يستمر طويلًا، فالشرعية الدينية كانت بديلًا عن الشرعية الانتخابية، وهذا أقل قبولًا لدى الشعوب اليوم، وقد يتحول لنقطة ضعف مستقبلًا، فالعرب بدؤوا يدركون أن الحكومات التقية والورعة ليست كالحكومات المؤهلة.

نهاية ملخص الكتاب - قراءة في الكتاب

"بودي أن أُؤمن فالإيمان مواساة".

رجل الأعمال البريطاني، مؤسس مجموعة فيرجن، الملياردير السير ريتشارد برانسون.

خاتمة

مؤشرات رقمية

تعد قضية الدين -على مستوى الفرد والدولة- قضية تحظى باهتمام متصاعد عالميًّا، رصدًا وتحليلًا، وبحسب الدكتور أحمد عبد ربه أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة؛ فقد أوردت دراسة موسعة عن العلاقة بين الدين والدولة (٢٠٠٩)، عدة نتائج لافتة للانتباه عن بحث درجة اعتماد الدول على الدين في أوربا لتجد الدراسة أن:

- **أولًا**: في عام ١٩٠٠، من بين ٤٥ دولة أوربية، لم تكن هناك سوى هولندا التى يمكن وصفها بـ"العلمانية"، بينما أبقت باقي الدول الأخرى اعتمادها على الدين بصور متنوعة. اعتمدت ٣١ دولة على ديانة واحدة بعينها (في معظمها كاثوليكية)، بينما اعتمدت باقي الدول على أديان مختلفة.
- ثانيًا: في عام ١٩٧٠ في أثناء الحرب الباردة، من إجمالي ٢٠ دولة في أوربا الغربية، لم يكن هناك سوى ٣ دول فقط يمكن وصفها بالعلمانية (هولندا وفرنسا والنمسا)، بينما باقي دول أوربا الغربية استمرت في تبني أحد الأديان، وضمن ذلك دول مثل: ألمانيا وإسبانيا والبرتغال والدنمارك والسويد والنرويج وإيطاليا، بينما اتجهت معظم دول الكتلة الشرقية إلى تبنِّي مبدأ "إلحاد الدولة" بحيث لم تكتف بفصل الدين عن الدولة، بل سعت إلى محاصرة الدين واضطهاد أتباعه.
- **ثالثًا**: في عام ٢٠٠٠، كشفت الدراسة أنه من بين دول أوربا الغربية فإن ألمانيا انضمت إلى: هولندا وفرنسا والنمسا، في الفصل التام بين الدولة والدين، فيما ظلت باقي الدول ال ١٦معتمِدة -بمستويات مختلفة- على الدين ومؤسساته في الشأن العام. فيما انقسمت الدول التى خرجت من عباءة الكتلة الشرقية بين دول عادت إلى الاعتماد على ديانات الأغلبية بها أو أصبحت دول علمانية.
- بحلول عام ٢٠٠٠ فإن ١٢ دولة أوربية فقط كان يمكن وصفها بالعلمانية بينما ظلت ٣٣ دولة تعتمد بأشكال مختلفة على الدين منها: سلوفينيا والتشيك وأوكرانيا

وروسيا البيضاء، فضلًا عن: اليونان والدانمارك وبلجيكا وأيسلندا وإيطاليا والبرتغال واسبانيا والمملكة المتحدة وايرلندا.

وبحلول عام ٢٠٠٢، كانت العلاقة بين الدين والدولة على النحو الآتي:

- من إجمالي ٤٣ دولة تنتشر بها الكاثوليكية في العالم؛ فإن ٣ دول فقط (٧٪) كانت تشهد فصلًا تامًّا بين الدين والدولة، بينما أدت الكنيسة الكاثوليكية دورا مؤسسيًّا في ٧ حالات (١٦.٣٪)، وفي ١٨ دولة حصلت الكاثوليكية على اعتراف وإقرار بالوجود في الشأن العام، بينما أبقت ٩ دول على علاقة تعاونية بين الدولة والكنيسة الكاثوليكية بها.
- في ٥٣ دولة تنتشر بها المسيحية غير الكاثوليكية (البروتستانتية والأرثوذكسية وغيرها)، دولة واحدة فقط عمدت إلى الفصل التام بين الدين والدولة، فيما قبلت ٦ دول دورًا مؤسسيًّا للدين، فيما فضلت الأكثرية (٢٠ دولة بنسبة وصلت إلى ٣٧,٧٪) إلى الإبقاء على مساحات محدودة نوعًا ما للمؤسسات الدينية بدون قبول الفصل التام.
- في حالة الدول التي ينتشر بها الإسلام (٤٧ دولة دُرست) فإن:
  - ٤ حالات فقط قبلت الصيغة العلمانية.
  - فضلت الأغلبية (٤٥,٧٪) قبول الدين ليؤدي دورًا مؤسسيًّا في الحياة العامة.
  - فضلت باقي الدول الإسلامية صيغًا متفاوتة تراوحت بين الإقرار بدور الدين إلى التعاون مع المؤسسات الدينية.

في دراسة ثالثة حاولت قياس درجة انخراط الدولة في الدين بإعطاء كل حالة مجموعة من النقاط بحسب درجة التدخل تراوحت بين صفر (الدول التي لا تتدخل إطلاقًا) و٨٠ نقطة (الدول التي تعظم من درجة تدخلها)، جاءت النتائج أيضًا لافتة للنظر على النحو الآتي:

- من إجمالي ٢٦ ديموقراطية غربية، ليس هناك سوى ٤ دول فقط (الولايات المتحدة الأمريكية، النمسا، هولندا، كندا) قد أخذت نقاطًا بين صفر و ١٠، أي: أن هذه الدول فقط هي التي أبقت على درجة تدخل متدنية في الدين.

- حصلت ٨ دول (منها ألمانيا والسويد وإيطاليا وايرلندا) على نقاط تراوحت بين ١٠ و٢٠ في التعبير عن درجة تدخل أعلى في الشأن الديني.
- حصلت أكثرية الدول الديموقراطية الغربية (١٢ دولة) على درجة تدخل تراوحت بين ٢٠ و٣٠ نقطة تعبيرًا عن مزيد من التدخل، منها دول مثل: سويسرا وفرنسا وبلجيكا والدنمارك.
- ارتفعت درجة التدخل لتتراوح بين ٣٠ و ٤٠ نقطة في دولتين فقط (اليونان وفنلندا).
- دول ديموقراطية غير غربية -مثل الهند- حصلت على درجة تدخل تراوحت بين الـ٢٠ وال ٣٠ نقطة، بينما ارتفع الرقم في الأرجنتين وإسرائيل بين الـ٣٠ والـ٤٠ نقطة.

وتعليقًا على هذه الحقائق يتساءل الدكتور أحمد عبد ربه: "ماذا تقول هذه الأرقام إذن؟"

ويجيب: "تقول أولًا: إن التصور النظري عن العلمانية باعتبارها فصلًا تامًّا بين الدولة والدين هو غير موجود عمليًّا إلا في عدد محدود للغاية من الدول الغربية، فيما تتبنى باقي الدول الغربية الديموقراطية صيغًا توفيقية بين دور مؤسسات الدولة والمؤسسات الدينية، ما يسمح لهذه المؤسسات بأداء أدوار مهمة بها". و"قرار الدولة بإبعاد الدين عن المساحة العامة لا يعني بالضرورة الديموقراطية والقبول بالتعددية، بل إنه في حالات كثيرة وصل إلى درجة من الاضطهاد والتمييز ضد المتدينين، وهو ما انتفى معه أي صيغة ديموقراطية أو تعددية". و"تقول هذه الأرقام ثالثًا: إن علمانية الدولة لا تعني بالضرورة رغبتها في استقلال الدين عن سيطرتها، بل إنها في بعض الحالات كانت تعني قدرًا ما من التدخل في الشأن الديني (حالات: هولندا وفرنسا وإسبانيا والدانمارك وتركيا). كما أنها تقول أخيرًا: إن دين الأغلبية ظل له اعتبار في المساحة العامة حتى في دول أوربا الغربية الديموقراطية".

وتنشر مؤسسات ومراكز دراسات عالمية، كلَّ مدة، إحصاءات حول التديُّن

والإلحاد في العالم، ولعلَّ أبرزها ما أجراه مركز بيو الأمريكيُّ للأبحاث ونُشرت نتائجه في ١٢ أيار ٢٠١٥. أفاد المركز أن عدد البالغين من سكَّان أمريكا من المتديِّنين المسيحيِّين تراجع على مدى الأعوام السبعة المنصرمة، وتحديدًا بين ٢٠٠٧ و٢٠١٤، من ٧٨,٤ إلى ٧٠,٦٪، وهو ما نتج أساسًا من الانخفاض في أعداد الكاثوليك والإنجيليِّين (البروتستانت). في الوقت نفسه، زاد عدد الملحدين، في المدة نفسها، نحو ٦ ٪، ليصل إلى ٢٢,٨ ٪، علمًا بأن عدد مسيحيِّي أمريكا لا يزال أكبر منه في أيِّ دولة أخرى، ما دامت النسبة تصل إلى ٧ مسيحيين من أصل ١٠ أمريكيين. إشارةً إلى أن ظاهرة الملحدين تشمل كذلك مصطلحات مختلفة، منها الماديون، واللاأدريون، واللادينيون، واللامبالون، و"الكافرون"، وغيرهم.

وبحسب الدراسة فإن "البلاد أقل تدينًا عمومًا"، فنسبة المتدينين المسيحيين بلغت ٨٦ ٪ في ١٩٩٠، وقال الباحث الرئيس الدراسة: "نعلم أن اللادينيين في تزايد منذ عقود... لكن الأمر المذهل حقًّا هو وتيرة النمو". ويُرجع المركز السبب في التراجع التي تتعرض له هذه المجموعات الدينية إلى ما يُسمى: "التحول الديني"، أي: تبديل مؤمن لإيمانه بدين آخر. والإلحاد في أمريكا لا يمكن أن يكون واضحًا وضوحًا كافيًا، في بلد قام أصلًا على عبادة الله: في الدستور، وعلى العملة، عدا آلاف الكنائس، في أماكن مختلفة، تذكر بحضور الله في كلِّ حين؛ لذلك ربما يقترب الإلحاد الأمريكي، لدى الشبان تحديدًا، من اللاأدرية، التي ترتكز أساسًا على فكرة الخوف من نظرة الأكثرية الدينية إلى الأقليات؛ مع ذلك، لا يؤيد معظم الأمريكيين وصول ملحد إلى منصب الرئاسة الأولى، كون الإلحاد بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ اقترب من الراديكالية والتطرف واللاتسامح.

وفي مارس ٢٠١٣ كشفت دراسة مشابهة لمركز بيو للأبحاث حول خريطة الأديان في العالم، شملت ٢٣٠ بلدًا، أن ٨٤ ٪ من سكان العالم متدينون، وهذا ما يمثل نسبة ٥,٨ مليارات شخص من أصل ٦,٩ مليارات نسمة. وصنَّف المركز العالم في ٨ مجموعات دينية، فاحتلَّت المسيحية المجموعة الدينية الأولى (٣١,٥٪ بعدما كانت

قبل سنوات ٣٥٪)؛ واحتل الإسلام المرتبة الثانية، فيبلغ العدد ١,٦ مليار شخص (٢٣,٢٪). ورد كذلك أن الملحدين يمثّلون ثالث أكبر المجموعات في العالم بعد المسيحية والإسلام، فكشفت الدراسة عدم انتساب ١٦,٣٪ من سكَّان العالم، أي: نحو مليار و١٠٠ ألف شخص، إلى أيٍّ: ديانة، كما أظهرت أن نحو ٥٢٪ من الملحدين في العالم يوجدون في دولة واحدة، هي الصين. أبرزت الدراسة كذلك أن عدد الملحدين بلغ ٧٦ ٪ من مجموع السكَّان في تشيكيا، و٧١٪ في كوريا الشمالية، و٥٩ ٪ في إستونيا، و٥٧٪ في اليابان، فخلصت إلى أن العالم لا يزال ينزع نحو التديُّن.

وفي أغسطس ٢٠١٢ كشف إحصاء أن ٨٦٪ من سكان إفريقيا متديِّنون، وكذلك ٨٢٪ في الشرق الأوسط، و٤٧٪ في أوربا الغربية، و٤٥٪ في كندا، و٩٤٪ في تايلاند، و٩٣٪ في جورجيا، و٣٦٪ في هولندا، و٢٣٪ في تشيكيا.

وفي ٢٠٠٨، أفاد استطلاع أمريكيٌّ أجرته مؤسسة غالوب حول الإيمان والإلحاد في العالم عن هبوط نسبة المتدينين في إيرلندا من ٦٩٪ إلى ٤٧٪؛ وفي فييتنام، بلغت نسبة الملحدين ٥٣٪؛ وفي الصين ٨٠٪؛ وفي اليابان ٣١٪؛ وفي تشيكوسلوفاكيا ٢٩٪[(١)].

ذكرت دراسة أمريكية حديثة أن الإسلام سيكون الدين الأسرع نموًّا في العالم في العقود الأربعة المقبلة. وأشارت الدراسة التي أجراها مركز "بيو" الأمريكي إلى أنه بحلول عام ٢٠٥٠، سيرتفع عدد المسلمين حول العالم من ٦،١ مليار شخص إلى ٧،٢ مليار. الدراسة ذكرت أن من المتوقع أن يمثل المسلمون ثلث إجمالي سكان العالم المتوقع أن يصل على ٩ مليار نسمة بحلول عام ٢٠٥٠. اللافت -وفقًا للتقرير- أن أوربا (المنطقة الوحيدة التي ستشهد انكماشًا في عدد السكان) سينخفض فيها عدد

(١) تيار الإلحاد وتبدلات المشهد الديني في العالم، جان م. صدقة، موقع النهار الإخباري، لبنان، ٢٢ أغسطس ٢٠١٥، الرابط :

https://url-shortener.me/DQAT

المسيحيين من ٥٥٣ إلى ٤٥٤ مليونًا، كما سينخفض عدد المسيحيين في أمريكا من ثلاثة أرباع عدد السكان إلى الثلثين في العام ٢٠٥٠.

ووفقًا لنتائج الدراسة؛ فإن أعلى نسبة للتحول بين الأديان توجد بين المسيحيين، وتوقعت أن يتحول ١٠٦ ملايين شخص عن الديانة المسيحية بين عامي ٢٠١٠ و٢٠٥٠، مقابل تحول ٤٠ مليونًا إلى المسيحية. وتتوقع الدراسة أن تصل نسبة المسلمين في أوربا ١٠٪ بحلول ٢٠٥٠، وأن تتجاوز نسبة المسلمين في الولايات المتحدة نسبة اليهود بحلول العام نفسه. ويتوقع التقرير أن تصبح الهند الدولة الأولى من حيث عدد السكان المسلمين. بحلول عام ٢٠٥٠، سيكون ستة أشخاص من أصل عشر إما مسلمين أو مسيحيين، وبذلك يماثل المسلمون تقريبًا المسيحيين في العدد ونسبتهم من سكان العالم، وتعد المرة الأولى في التاريخ التي يحدث فيها ذلك التوازن. كما توقعت الدراسة أنه في عام ٢١٠٠ سيتخطى عدد المسلمين حول العالم عدد المسيحيين، إلا أن واضعي الدراسة، التي استغرقت ٦ أعوام، غير متأكدين من تلك النسبة؛ إذ استندت لإظهار النتائج على بيانات مجمعة من ٢٣٤ بلدًا. وقالت الدراسة: إن الملحدين سيزداد عددهم في أمريكا من ١٦٪ إلى ٢٦٪، ولكن ستنخفض نسبتهم في الإحصائية العالمية، وسيتجاوز المسلمون اليهود ليصبحوا أكبر دين غير مسيحي منتشر في أمريكا.

وبحسب الدراسة، تُعَدُّ الصين من أكبر الدول التي تضُم أكبر عدد من المسلمين مع العلم أنها ليست دولة إسلامية، ويبلغ عدد المسلمين المنتشرين في مختلف المدن الصينية ما يقارب ١٢٠ مليون مسلم تمكنوا من الاندماج في المجتمع الصيني إبَّان الحكم المغولي في الصين وحتى الآن، ومع اندماج المسلمين في الصين مع الفئات والشرائح كافة والديانات المختلفة المنتشرة في المجتمع الصيني فإنهم تمكنوا من المحافظة على العادات والتقاليد الإسلامية والتمسك بشرائع الدين الإسلامي، الأمر الذي ساعدهم في تولي مناصب عالية ومهمة في عهد الدولة المغولية، بالإضافة إلى

الظهور والانتشار السريع للفن الإسلامي في الصين، وحرص المسلمين على تثبيت أنفسهم في مختلف مناطق الصين بالمصاهرة من الأسر المسلمة في الصين من الصينيين والعرب وغيرهم من الأجانب[1].

وفي وقفة مع بريطانيا بالتحديد؛ فإنه لو استمرت الحال على ما كشفه آخر إحصاء للسكان ونوعياتهم في إنكلترا، قد لا يسمع بعد ٣٠ سنة طنينًا لجرس في كنيسة يدعو المؤمنين إلى الصلاة؛ لأن عدد المسيحيين تراجع تراجعًا حادًّا في السنوات العشر الأخيرة، فتقلصوا أكثر من ٤ ملايين، بينما تضاعف عدد المسلمين والملحدين، وظهرت على السطح عبر الإحصاء إيمانيات غريبة وعقائد عجيبة جديدة، إلى درجة أن أحدَها مستمَد من فيلم سينمائي، أظهرت المقارنة بين إحصاء ٢٠٠١ ومثيله الذي جرى في ٢٠١١ أن أقل من ٦ بين كل ١٠ أشخاص هم مسيحيون في إنكلترا البالغ عدد سكانها ٥٣ مليون نسمة، وكذلك في ويلز وسكانها ٣ ملايين؛ إذ بلغوا ٥٩٪ من السكان بالإحصاء الأخير، بينما كانوا ٧٢٪ في الإحصاء الذي سبقه منذ ١٠ سنوات، أي: أن عدد المسيحيين تراجع ٤ , ١٢٪ ما جعلهم ٥٩٪ من السكان، أي: تقريبًا ٣٤ مليون نسمة.

اتضح أيضًا أن عدد الملحدين قفز من ٧ ملايين و٧٠٠ ألف في إحصاء ٢٠٠١ إلى ١٤ مليونًا و١٠٠ ألف في إحصاء ٢٠١١، جاعلين ٤٨٪ من سكان لندن وحدها لادينيين مثلهم. مع ذلك اعتُبرت "كنيسة إنكلترا" أن الرقم "باعث على السرور"، و"هذه النتيجة تثبت في الأقل أننا ما زلنا أمة مؤمنة". وبحسب جمعية الإنسانيين البريطانيين فإن عددًا من وصفوا أنفسهم بالمسيحيين في الإحصاء الأخير كان وصفًا كيفما كان، أي: أن الكثيرين منهم لم يجدوا ما يصنفون به أنفسهم دينيًّا سوى اختيار الأسهل، وهي المسيحية "لذلك ففي الرقم مبالغات، ونسبتهم (المسيحيين) في الحقيقة أقل بكثير؛ لأن

---

(١) التوزيع الديني عام ٢٠٥٠.. الإسلام الأسرع انتشارًا، تقرير، موقع إسلام أون لاين، ٢٦ يناير ٢٠١٧، الرابط:

https://islamonline.net/19886

غالبيتهم لا يمارسون إيمانهم". والديانة الأكثر نموًا في إنكلترا وويلز، بحسب ما ظهر من مقارنة الإحصاء الأخير مع ما سبقه، فهي الإسلام الذي قفز عدد أتباعه، من بريطانيين ومقيمين، إلى الضعف تقريبًا: كانوا مليونًا و٥٠٠ ألف في ٢٠٠١ ووصلوا إلى مليونين و٧٠٠ ألف، فهناك مسلم بين كل ٢٠ نسمة[١].

قراءة في نتائج بعض التقارير والاستطلاعات الدولية:

تعيش كثير من المجتمعات البشرية على وقع تحولات متسارعة وشديدة التأثير، وهذه التحولات تَمَسُّ كل الأنساق التي يتأثر بها الإنسان، سواء منها السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية ومنها الدينية، وقد بيَّنت كثير من الأبحاث والاستقصاءات التي أجريت في كثير من الدول، ومنها البحث العالمي حول القيم (٢٠٠٠) أن العالم يشهد عودة للتدين بصورة قوية، حتى إن المجتمعات التي عرفت الإيديولوجية الشيوعية نظامًا للحكم، استرجعت منظومة القيم الدينية. ويؤكد "ماكس فيبر" المؤسس لسوسيولوجيا الأديان "أن القيم الدينية تمثل أحد الركائز الأساسية في استمرار نقل القيم من جيل لآخر". وقد تهاوى التفسير الذي يربط بين التصنيع والتحديث وأفول الدين، وذلك بفشل كل التنبؤات التي وضعها رواد المدرسة الوضعية. ولعل في الاطلاع على التقارير الصادرة في الآونة الأخيرة ما يؤكد مركزية الدين في حياة الكثير من الشعوب، فحسب معهد "غالوب" والذي أصدر دراسة مسحية سنة ٢٠١٠، والتي شملت ١١٤ دولة في العالم، فإن الدين لا يزال يضطلع بدور مهم في حياة كثير من الناس، وأن النسبة المتوسطة العالمية للبالغين الذين قالوا بأن الدين جزء من أساسي من حياتهم اليومية بلغ ٨٤٪، وهذه النسبة لم تتغير عن النسب المسجلة في الاستقصاءات الأخيرة، وان عشر دول ومناطق في الأقل (٩٨٪) قالوا بأن الدين أساسي في حياتهم اليومية.

---

(١) الإسلام والإلحاد يكتسحان إنكلترا والمسيحية في خطر، مجتمع يتعايش فيه مليونان و٧٠٠ ألف مسلم مع ١٤ مليون ملحد و٣٤ مليون مسيحي، موقع العربية نت، ١٢ ديسمبر ٢٠١٢، كمال قبيسي، الرابط:
http://www.alarabiya.net/articles/2012/12/12/254737.html

وكذلك يُعَدُّ مصطلح " ملحد " مشينًا؛ اجتماعيًّا، وحتى غير المؤمنين بوجود الله فإن أغلبهم يحاول تجنب استعماله، وفي هذا الصدد أكدت دراسة في ٢٠٠٣ أن ٤١٪ من النرويجيين و٤٨٪ من الفرنسيين لا يؤمنون بالله، لكن ١٠٪ من النرويجيين و ١٩٪ في الفرنسيين فقط هم يعترفون بأنهم ملحدون[١].

(١) قراءة في نتائج بعض التقارير والاستطلاعات الدولية، مدخل للفهم والاستشراف، تقرير، مركز نماء للبحوث والدراسات، ١٧ يوليو ٢٠١٢، الرابط:

http://nama-center.com/ActivitieDatials.aspx?id=101

ملحق

تيَّار الإلحاد وتبدُّلات المشهد الدينيِّ في العالم[1]

جان م. صدقة

في العام ٢٠٠٦، نشر البيولوجي الداروينيي ريتشارد داوكينز كتابه الشهير عنوانه "وهم الإله" The God Delusion الذي تربع على قائمة الكتب الأكثر مبيعًا في العالم؛ وكان العام ٢٠٠٥ شهد صدور كتاب سام هاريس: "نهاية الإيمان" The End of Faith، فكان من أكثر الكتب مبيعًا في أمريكا؛ تلاه نشر مجموعة كتب حول الإلحاد لعدد من الكتاب، من أبرزهم كريستوفر هيتشنز، دانيال دينيت، ممن عُرفوا بـ"الملحدين الجدد". ويُعدُّ الإلحاد الجديد New Atheism مصطلحًا معروفًا متداولًا في الدوائر الفكرية والفلسفية بعدما تصاعد انتشاره في أمريكا والغرب عمومًا إثر ١١ أيلول ٢٠٠١. كما نشر الملحدون الجدد كتبًا للأطفال بهدف الترويج للفكر الإلحادي في أوساطهم، منها كتاب "إنِّي أتساءل" I Wonder للكاتبة أناكا هاريس. كما شهدت أمريكا نشوء عدد من المؤسَّسات الإلحاديَّة التي تُعنى بالدعوة إلى الإلحاد، ورعاية الملحدين، منها: "التحالف الدولي للملحدين"، و"رابطة الملحدين"، و"مؤسَّسة ريتشارد داوكنز لدعم العقل والعِلم"، وغيرها.

وصرَّح الدكتور الأمريكي فيليب أستاذ علم الاجتماع والدراسات العلمانية في كلية "بيتزر" بكاليفورنيا في "دليل كامبريدج للإلحاد": "اليوم عدد الملحدين أعلى على الإطلاق من أيِّ وقت مضى، سواء من حيث الأرقام المطلقة أو النسبة المئوية من البشر. فالأمن في المجتمع يقلِّل المعتقد الدينيِّ... والرأسمالية والتعليم والتكنولوجيا قد تؤدِّي

---

(١) تيار الإلحاد وتبدلات المشهد الديني في العالم، جان م. صدقة، موقع النهار الإخباري، لبنان، ٢٢ أغسطس ٢٠١٥، الرابط:

https://url-shortener.me/DQAT

جميعها إلى تأكل نسبة التديُّن عند بعض الأشخاص". ميَّزت دراسة زوكرمان بين دول "الإلحاد العضوي" الناتج من الخيار الفردي الحر، وبين دول "الإلحاد القسري" المفروض من الحكومات مثل كوريا الشمالية.

حركة الملحدين الجدد في بريطانيا:

منذ نحو سنتين نظم بريطانيان مجموعة تحمل اسم "تجمع الأحد"، يرتكز نظامه على النهج الكنسي المسيحي؛ حيث الترانيم والأغاني والعظات (غير الدينية) والمحاضرات والشهادات والتأمل والصمت وغيرها، شعاره "العيش بشكل أفضل، والمساعدة غالبًا". لكنَّه تجمُّع ملحد يستبعد فكرة الله، وإنما هو مبنيٌّ على مرتكزات مسيحية، فيدعو إلى الفرح ومساعدة الآخر وغيرها. وقد رأى عدد من البريطانيِّين في هذا التجمُّع إطارًا روحيًّا واجتماعيًّا للحياة، أكثر حداثة من الكنيسة، لكنَّه يتناقض مع الحركات الملحدة المعروفة، وهو يهدف إلى الاحتفال بالإنسانية بطريقة جماعية.

فهرس الموضوعات

المقــدمة ٣
الفصل الأول: الإلحاد حدود وسياقات ١٧
الفصل الثاني: من ميلاد "الحداثة الأوربية" والإلحاد الحديث إلى اليوم ٣٣
الفصل الثالث: المشهد العالمي الراهن للإلحاد ٤٢
الفصل الرابع: الدين والفضاء العام والدولة والفرد ٥٠
ملخص كتاب عرب بلا رب ٥٨
الجزء الأول: طرقٌ إلى الكفر ٥٩
الفصل الأول: "إنكار الله وهدم المجتمع" ٦١
الفصل الثاني: "الإلحاد في التاريخ العربي" ٧١
الفصل الثالث: "كتابُ الله" ٨٢
الفصل الرابع: خسارتهم لِدينهم ٨٤
الفصل الخامس: الإلحاد والجنس (النوع) والميول الجنسيَّة ٩٣
الجزء الثاني: حماية الدين ٩٥
الفصل السادس: امتيازات الدِّين ٩٥
الفصل السابع: مسلم للمرة الأولى مسلم دائمًا ٩٩
الفصل الثامن: الحق في الإساءة: والتسبُّب في الصدمة والإزعاج ١٠٢
الفصل التاسع: طعمُ الحرية؟ ١٠٧
الفصل العاشر: سياسات الإلحاد ١٠٩
نهاية ملخص الكتاب – قراءة في الكتاب ١١٦
خاتمة مؤشرات رقمية ١١٧
ملحق تيَّار الإلحاد وتبدُّلات المشهد الدينيِّ في العالم ١٢٦
فهرس الموضوعات ١٢٨